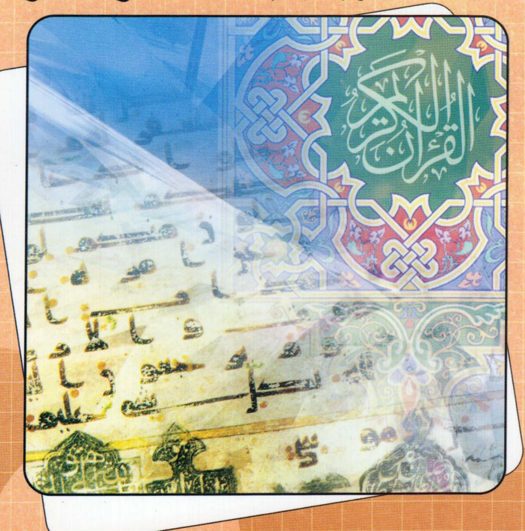
المدرسة القرآنية

الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر



دار الكتاب الاسلامي

المدرسة القرآنيه

التفسير الموضوعي و التفسير التجزيئي
والسُّنن التاريخيّة و عناصر المجتمع
في القرآن الكريم

محاضرات سماحة

الامام الشهيد السيد محمد باقر الصدر ﵀



الكتاب .... المدرسة القرآنية

المؤلف .... المرجع الشهيد السيد محمد باقر الصدر ﷺ

الناشر .... دارالكتاب الاسلامي

الطبعة .... الثانية / ١٤٣٤ هـ ق / ٢٠١٣ م

المطبعة .... مطبعة ستار

عدد النسخ .... (٢٠٠٠) نسخة

الترقيم الدولي : ٩ - ٠٧٨ - ٤٦٥ - ٩٦٤ - ٩٧٨

ISBN : 978 - 964 - 465 - 078 - 9

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

﴿يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين أوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة/١١).

بين يديك قارئنا الكريم الموسوعة الفكرية والثقافية للمرجع الديني والمفكر الإسلامي الكبير الشهيد آية الله السيد محمد باقر الصدر ..

إنّ العظماء ورجال الفكر وروّاد الثقافة يشكّلون دوماً ـ بما ينتجون من فكر وثقافة ونظريات ـ منعطفات ومسارات تأريخية في حياة البشرية، ويفتحون صفحة جديدة في تأريخها .. وإن ما شهده الانسان من تحولات وتطور وارتقاء في مجال الفكر والسياسة والحضارة والمجتمع والتطور العلمي والمدني .. إن هو إلّا نتاج جهود العباقرة والنوابغ ورجال الفكر والثقافة من أبناء الانسانية .. ويحق لنا ونحن نعرض المجموعة الثقافية للشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر .. يحق لنا القول أنّ الشهيد السيد محمد باقر الصدر واحد من الأفذاذ وروّاد العلم والحضارات والتجديد في العالم الاسلامي.

لقد بزغ نجمه العلمي في عقدين من الزمان هما عقد الستينات والسبعينات .. كفقيه صاحب نظريات فقهية وأُصولية منحت الفكر الأُصولي والفقهي التجديد والتحول والإبداع ووهبت منهج الاستنباط الخصوبة والعطاء الأوفر..

ولما تهيأ له من مكانة فقهية وأُصولية وملكة استنباطية عالية استطاع أن يتبوأ مقعد الافتاء، ويحتل موقع التقليد والمرجعية الدينية ..

وكما نبغ في الفقه والأُصول وبقية علوم الاجتهاد نبع في مجال الفكر والثقافة والاستيعاب الشامل لفكر العصر وثقافته .. حتى يمكن القول أنّه كان من أبرز رجال الفكر والثقافة الاسلامية.

لقد كانت كتبه وأفكاره أُسس ثقافية ونظريات يشاد بها لبناء الفكر الاسلامي، وقد امتازت بالحداثة والعمق والأصالة والشمول والتوحد بين

المسلمين كافة .. ويمتاز فكره وكتاباته إلى جانب الأصالة والشمول بأتباع منهجية النقد العلمي البنّاء للمذاهب الفكرية والفلسفية ومقارنتها بالفكر والنظرية الاسلامية .. وعن طريق هذا المنهج حقّق للفكر الاسلامي المعاصر الحضور المتفوق ونقله من منهج الدفاع الذي اتّبعه بعض الكُتّاب الاسلاميين إلى مرحلة النقد واحتلال موقع البديل .. لقد كتب الشهيد الصدر في الفلسفة والعقيدة كما كتب في الاقتصاد والسياسة والتأريخ والاجتماع وفي الثقافة العامّة اضافة إلى ما كتبه في الفقه والأُصول وعلوم الاستنباط .. وكما نقرأ فكر وثقافة السيد محمد باقر الصدر ينبغي أن نعرف شيئاً عن هذا المفكر والفقيه والمصلح الاجتماعي والقائد السياسي الذي قرن فكره بالعمل والفداء ..

وُلِد الشهيد السيِّد محمد باقر الصدر في ٢٥ ذي القعدة عام ١٣٥٣هـ الموافق ١٩٣٣م في مدينة الكاظمية المجاورة لبغداد عاصمة العراق وينتهي نسبه الشريف إلى الإمام موسى بن جعفر الكاظم سابع أئمة أهل البيت عليهم السلام .

فقد والده في الرابعة من عمره، فتربّى بحضانة والدته المؤمنة ورعاية خاله الشيخ محمد رضا آل ياسين من مراجع الدين في العراق وأخيه السيِّد إسماعيل الصدر وهو من العلماء البارزين الذي درس مقدمات العلوم الإسلامية على يديه.

ظهرت عليه آثار النبوغ منذ صغره إذ كان يلقي الدروس في التاريخ الإسلامي وهو في العاشرة من عمره، وانتقل إلى النجف الأشرف عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٥م) ليواصل دراساته في حوزتها العلمية العريقة، فدرس على يد إثنين من أعلامها الأوّل خاله الشيخ محمد رضا آل ياسين الذي كان يحضر دروسه كبار العلماء، والآخر المرجع الكبير السيِّد أبو القاسم الخوئي، مع مراجعته الشخصية لكتب العلماء المختلفة في الفقه والأُصول ومتابعته للأبحاث الفكرية المتنوعة، وبلغ مرحلة الاجتهاد ولم يكن قد جاوز العشرين من

عمره.

بعد وفاة المرجع الكبير السيِّد محسن الحكيم عام ١٩٧٠م برز اسمه في عالم المرجعية وعرض أطروحة للنهوض بها تحت عنوان «المرجعية الرشيدة» وتصدّى منذ شبابه لارشاد التيار الاسلامي الواعي وقيادته في الوعي والعمل وتغذيته بالفكر الاسلامي المواكب للعصر والمتحرك في الحياة. وكتب بهذا الصدد مؤلفات اشتهرت في العالم الاسلامي وانتشرت في الأوساط العلمية والثقافية.

منذ مجيء حزب البعث المنحرف عام ١٩٦٨م عملت قيادته المجرمة على مضايقة الشهيد الصدر وتلامذته وأنصاره بالتهديد والتشريد والسجن والإعدام، وقد تعرّض سماحته لعدّة مرّات للاحتجاز والارهاب، فلم يزد الشهيد الصدر ذلك إلّا إصراراً على مواصلة مسيرته الجهادية من أجل الدفاع عن المبادئ الاسلامية وخلاص الشعب العراقي من الظلم والفساد والطغيان.

اعتقل عام ١٩٧٩م ثمّ وضع تحت الإقامة الجبرية والمراقبة الشديدة مدة عام تقريباً ثمّ في أوائل نيسان ١٩٨٠م عاودوا اعتقاله مع أخته العالمة الشهيدة بنت الهدى، فعُذِّبا وقُتِلا على أيدي مسؤولي النظام البعثي المجرم في ٨ نيسان عام ١٩٨٠م ليكون شاهداً وشهيداً ومَعْلَماً على مسيرة الاسلام الصاعدة في هذا العصر.

ويسرّنا أن نقدِّم للقُرّاء الأعزّاء هذه الطبعة الجديدة لبعض كتب هذا المرجع العالم والعامل والشهيد مساهمة منّا في تخليد ذكراه وتعريف الناس بفكره النيِّر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

الناشر

التفسير التجزيئي والتفسير التوحيدي
للقرآن الكريم (١)[١]

ربنا فقهنا في كتابك واكشف عن قلوبنا ظلمات الذنوب لكي نتفهم آياتك، وأزح عن بصائرنا غشاوة الدنيا وبريقها الكاذب لكي نملأ نفوسنا بهداك، واجعلنا من حملة قرآنك وسنة نبيك والسائرين على طريق طاعتك. ندعو بلغة القرآن وبلسان القرآن:

﴿ربَّنا أتمم لنا نُورنا واغفر لنا إنَّكَ على كُلِّ شيء قدير﴾[٢].

﴿ربَّنا لا تُؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربَّنا ولا تَحمِل علينا إصراً كما حملتَهُ على الَّذينَ من قبلنا، ربَّنا ولا تُحمّلنا ما لا طاقة لنا بهِ واعفُ عنَّا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القومِ الكافرينَ﴾[٣].

﴿ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمانِ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً

---

١ ـ الدرس الأول، يوم الثلاثاء ١٧/ ج ١/ ١٣٩٩هـ.

٢ ـ سورة التحريم، الآية ٨.

٣ ـ سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

للذين آمَنوا، ربَّنا إنَّك إنّك رؤوفٌ رحيمٌ﴾[1].

لاشك في تنوع التفسير واختلاف مذاهبه وتعدد مدارسه والتباين في كثير من الاحيان بين اهتماماته واتجاهاته: فهناك التفسير الذي يهتم بالجانب اللفظي والادبي والبلاغي من النص القرآني. وهناك التفسير الذي يهتم بجانب المحتوى والمعنى والمضمون. وهناك التفسير الذي يركز على الحديث ويفسر النص القرآني بالمأثور عنهم عليهم السلام أو بالمأثور عن الصحابة والتابعين. وهناك التفسير الذي يعتلج العقل ايضاً كأداة من عمق التفسير وفهم كتاب الله سبحانه وتعالى، وهناك التفسير المتحيز الذي يتخذ مواقف مذهبية مسبقة، يحاول أن يطبق النص القرآني على أساسها. وهناك التفسير غير المتحيز الذي يحاول أن يستنطق القرآن نفسه، ويطبق الرأي على القرآن لا القرآن على الرأي، الى غير ذلك من الاتجاهات المختلفة في التفسير الاسلامي.

إلّا ان الذي يهمنا بصورة خاصة ونحن على أبواب هذه الدراسة القرآنية، أن نركز على ابراز اتجاهين رئيسيين لحركة التفسير في الفكر الاسلامي ونطلق على أحدهما اسم «الاتجاه التجزيئي في التفسير» وعلى الآخر اسم «الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير» ونعني بالاتجاه التجزيئي المنهج الذي يتناول المفسر ضمن اطاره القرآن الكريم آية فآية وفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف.

والمفسر في إطار هذا المنهج يسير مع المصحف ويفسر قطعاته تدريجاً

---

١ ـ سورة الحشر، الآية ١٠.

بما يؤمن به من أدوات ووسائل للتفسير من الظهور أو المأثور من الأحاديث أو بلحاظ الآيات الاخرى التي تشترك مع تلك الآية في مصطلح أو مفهوم، بالقدر الذي يلقي ضوءاً على مدلول القطعة القرآنية التي يراد تفسيرها مع أخذ السياق الذي وقعت تلك القطعة ضمنه بعين الاعتبار من كل تلك الحالات.

وطبعاً نحن حينما نتحدث عن التفسير التجزيئي نقدمه في أوسع وأكمل صوره التي انتهى اليها. وإن التفسير التجزيئي تدرّج تاريخياً الى أن وصل الى مستوى الاستيعاب الشامل للقرآن الكريم بالطريقة التجزيئية.

وكان قد بدأ في عصر الصحابة التابعين على مستوى شرح تجزيئي لبعض الآيات القرآنية وتفسير لمفرداتها، وكلما امتد الزمن ازدادت الحاجة الى تفسير المزيد من الآيات الى أن انتهى الى الصورة التي قدم فيها ابن ماجة والطبري وغيرهما ممن كتب في التفسير في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع. وكانت تمثل أوسع صورة للمنهج التجزيئي في التفسير.

فالمنهج التجزيئي في التفسير حيث أنه كان يستهدف فهم مدلول «الله»، وحيث ان فهم مدلول «الله» كان في البداية متيسراً لعدد كبير من الناس ثم بدأ اللفظ يتعقد من حيث المعنى بمرور الزمن وازدياد الفاصل وتراكم القدرات والتجارب، وتطور الاحداث والاوضاع، من هنا توسع التفسير التجزيئي تبعاً لما اعترض النص القرآني من غموض ومن شك في تحديد مفهوم «الله» حتى تكامل في الطريقة التي نراها في موسوعات التفسير، حيث ان المفسر يبدأ من الآية الاولى من سورة الفاتحة الى سورة الناس فيفسر القرآن آية آية، لأن الكثير من الآيات بمرور الزمن أصبح معناها

ومدلولها اللفظي بحاجة إلى إبراز أو تجربة أو تأكيد ونحو ذلك، هذا هو التفسير التجزيئي.

طبعاً نحن لا نعني بالتجزيئية لمثل هذا المنهج التفسيري أن المفسر يقطع نظره عن سائر الآيات ولا يستعين بها في فهم الآية المطروحة للبحث، بل انه قد يستعين بآيات أخرى في هذا المجال كما يستعين بالاحاديث والروايات، ولكن هذه الاستعانة تتم بقصد الكشف عن المدلول اللفظي الذي تحمله الآية المطروحة للبحث، فالهدف في كل خطوة من هذا التفسير فهم مدلول الآية التي يواجهها المفسر بكل الوسائل الممكنة، أي أن الهدف «هدف تجزيئي»، لأنه يقف دائماً عند حدود فهم هذا الجزء أو ذاك من النص القرآني ولا يتجاوز ذلك غالباً، وحصيلة تفسير تجزيئي للقرآن الكريم كله تساوي على أفضل تقدير مجموعة مدلولات القرآن الكريم ملحوظة بنظرة تجزيئية ايضاً، أي أنه سوف نحصل على عدد كبير من المعارف والمدلولات القرآنية، ولكن في حالة تناثر وتراكم عددي دون أن نكتشف أوجه الارتباط، دون أن نكتشف التركيب العضوي لهذه المجاميع من الافكار، دون أن نحدد في نهاية المطاف نظرية قرآنية لكل مجال من مجالات الحياة، فهناك تراكم عددي للمعلومات، إلّا أن مجموع ما بين هذه المعلومات، الروابط والعلاقات ما بين هذه المعلومات التي تحولها الى مركبات نظرية ومجاميع فكرية بالامكان ان نحضّر على أساسها نظرية القرآن لمختلف المجالات والمواضيع، أما هذا فليس مستهدفاً بالذات في منهج التفسير التجزيئي وان كان قد يحصل احياناً، ولكن ليس هو المستهدف بالذات في منهج التفسير التجزيئي.

وقد أدت حالة التناثر ونزعة الاتجاه التجزيئي الى ظهور التناقضات المذهبية العديدة في الحياة الاسلامية، إذ كان يكفي أن يجد هذا المفسر أو ذاك آية تبرر مذهبه لكي يعلن عنه ويجمع حوله الانصار والاشياع كما وقع في كثير من المسائل الكلامية كمسألة الجبر والتفويض والاختيار مثلاً.

بينما كان بالامكان تفادي كثير من هذه التناقضات لو أن المفسر التجزيئي خطا خطوة أخرى ولم يقتصر على هذا التجميع العددي كما نرى ذلك في الاتجاه الثاني.

الاتجاه الثاني: نسميه الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير.

هذا الاتجاه لا يتناول تفسير القرآن آية فآية بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، فيبين ويبحث ويدرس مثلاً عقيدة التوحيد في القرآن، أو يبحث عن النبوة في القرآن، أو عن المذهب الاقتصادي في القرآن، أو عن سنن التاريخ في القرآن، أو عن السماوات والارض في القرآن الكريم، وهكذا.

ويستهدف التفسير التوحيدي الموضوعي من القيام بهذه الدراسات تحديد موقف نظري للقرآن الكريم وبالتالي للرسالة الاسلامية من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة أو الكون.

وينبغي أن يكون واضحاً أن الفصل بين الاتجاهين المذكورين ليس حديا على مستوى الواقع العملي والممارسة التاريخية لعملية التفسير، لأن

الاتجاه الموضوعي بحاجة طبعاً الى تحديد المدلولات التجزيئية في الآيات التي يريد التعامل معها ضمن اطار الموضوع الذي يتبناه. كما أن الاتجاه التجزيئي قد يعثر في اثناء الطريق بحقيقة قرآنية من حقائق الحياة الاخرى، ولكن الاتجاهين على أي حال يظلان على الرغم من ذلك مختلفين في ملامحهما وأهدافهما وحصيلتهما الفكرية.

ومما ساعد على شيوع الاتجاه التجزيئي للتفسير وسيطرته على الساحة قروناً عديدة، النزعة الروائية والحديثية للتفسير، حيث أن التفسير لم يكن في الحقيقة وفي البداية إلّا شعبة من الحديث بصورة أو بأخرى وكان الحديث هو الاساس الوحيد تقريباً، مضافاً الى بعض المعلومات اللغوية والادبية والتاريخية، كان هو الأساس الوحيد مضافاً الى بعض هذه المعلومات التي يعتمد عليها التفسير طيلة فترة طويلة من الزمن.

ومن هنا لم يكن بامكان تفسير يقف عند حدود المأثور من الروايات عن الصحابة والتابعين وعن الرسول والأئمة، الروايات التي كانت تثيرها استفهامات عقلية على الأغلب من قبل الناس، من قبل السائلين، لم يكن بامكان تفسير يعتمد على هذه الروايات التي تستثار من قبل أسئلة عقلية من هذا القبيل، لم يكن بامكانه ان يتقدم خطوة أخرى وأن يحاول تركيب مدلولات القرآن والمقارنة بينها واستخراج النظرية من وراء هذه المدلولات اللفظية. التفسير كان بطبعه تفسيراً لفظياً، تفسيراً للمفردات لما استبدل من المفردات وشرح بعض المستجد من المصطلحات وتطبيق بعض المفاهيم على اسباب النزول، ومثل هذه العملية لم يكن بامكانها ان تقوم بدور اجتهادي مبدع، في التوصل الى ما وراء المدلول اللغوي

واللفظي، التوصل إلى الأفكار الاساسية التي حاول القرآن الكريم أن يعطيها من خلال المتناثر من آياته الشريفة.

ويمكننا ان نقرب الى اذهانكم فكرة هذين الاتجاهين المختلفين في تفسير القرآن الكريم بمثال من تجربتكم الفقهية، فالفقه هو بمعنى من المعاني تفسير للأحاديث الواردة عن النبي والأئمة عليهم السلام ،ونحن نعرف من البحث الفقهي ان هناك كتبا فقهية شرحت الاحاديث حديثاً حديثاً، تناولت كل حديث وشرحته، وتكلمت عنه دلالة أو سنداً أو متناً، أو دلالة وسنداً ومتناً، على اختلاف اتجاهات الشراح. كما نجد ذلك في شراح الكتب الاربعة وشراح الوسائل، غير ان القسم الأعظم من الكتب الفقهية والدراسات العلمية في هذا المجال لم تتجه هذا الاتجاه بل صنفت البحث الى مسائل وفقاً لوقائع الحياة وجعلت في اطار كل مسألة الاحاديث التي تتصل بها وفسرتها بالقدر الذي يلقي ضوءاً على تلك المسألة ويؤدي الى تحديد موقف الاسلام من تلك الواقعة التي تفترضها المسألة المذكورة، وهذا هو الاتجاه الموضوعي على الصعيد الفقهي، بينما ذاك هو الاتجاه التجزيئي في تفسير الاحاديث على هذا الصعيد.

كتاب الجواهر في الحقيقة شرح كامل شامل لروايات الكتب الاربعة ولكنه ليس شرحاً يبدأ بالكتب الأربعة رواية رواية وانما يصنف روايات الكتب الأربعة وفقاً للحياة، وفقاً لمواضيع الحياة، كتاب البيع، كتاب الجعالة، كتاب إحياء الموات، كتاب النكاح، ثم يجمع تحت كل عنوان من هذه العناوين الروايات التي تتصل بذلك الموضوع ويشرحها ويقارن فيما بينها يخرج بنظرية لأنه لا يكتفي بأن يفهم معنى هذه الرواية فقط بصورة

منفردة، ومعنى هذه الرواية بصورة منفردة، إذ مع هذه الحالة من الفردية لا يمكن ان يصل الى الحكم الشرعي، وإنما يصل الى الحكم الشرعي عن طريق دراسة مجموعة من الروايات التي تحمل مسؤولية توضيح حكم واحد أو باب واحد من أبواب الحياة، ثم عن طريق هذه الدراسة الشاملة يستخرج نظرية واحدة التي تعطى من قبل مجموعة من الروايات لا من قبل رواية رواية.

هذا هو الاتجاه الموضوعي عن شرح الاحاديث.

ومن خلال المقارنة بين الدراسات القرآنية والدراسات الفقهية نلاحظ اختلاف مواقع الاتجاهين على الصعيدين، فبينما انتشر الاتجاه الموضوعي والتوحيدي على الصعيد الفقهي وما خطا الفقه والفكر الفقهي خطوات في مجال نموه وتطوره حتى ساد هذا الاتجاه جل البحوث الفقهية، نجد أن العكس هو الصحيح على الصعيد القرآني حيث سيطر الاتجاه التجزيئي للتفسير على الساحة عبر ثلاثة عشر قرناً تقريباً، إذ كان كل مفسر يبدأ كما بدأ سلفه فيفسر القرآن آية آية. اذن الاتجاه الموضوعي هو الذي سيطر على الساحة الفقهية بينما الاتجاه التجزيئي هو الذي سيطر على الساحة القرآنية. وأما ما ظهر على الصعيد القرآني من دراسات تسمى بالتفسير الموضوعي احياناً من قبيل دراسات بعض المفسرين حول موضوعات معينة تتعلق بالقرآن الكريم كأسباب النزول أو القراءات أو الناسخ والمنسوخ أو مجازات القرآن، فليست من التفسير التوحيدي والموضوعي بالمعنى الذي نريده، فإن هذه الدراسات ليست في الحقيقة إلّا تجميعا عددياً لقضايا من التفسير التجزيئي لوحظ فيما بينها شيء من التشابه، وفي كلمة

اخرى ليست كل عملية تجميع أو عزل دراسة موضوعية، وإنما الدراسة الموضوعية هي التي تطرح موضوعاً من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية وتتجه الى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده.

وأكثر ظني ان الاتجاه التوحيدي والموضوعي في الفقه بامتداده وانتشاره ساعد بدرجة كبيرة على تطوير الفكر الفقهي وإثراء الدراسات العلمية في هذا المجال بقدر ما ساعد انتشار الاتجاه التجزيئي في التفسير على اعاقة الفكر الاسلامي القرآني عن النمو المكتمل وساعد على اكتسابه حالة تشبه الحالات التكرارية حتى نكاد نقول ان قروناً من الزمن متراكمة مرت بعد تفاسير الطبري والرازي والشيخ الطوسي، لم يحقق فيها الفكر الاسلامي مكاسب حقيقية جديدة، وظل التفسير ثابتاً لا يتغير إلّا قليلاً خلال تلك القرون على الرغم من ألوان التغير التي حفلت بها الحياة في مختلف الميادين، وسوف يتضح إن شاء الله تعالى من خلال المقارنة بين الاتجاهين: الاتجاه التجزيئي والاتجاه التوحيدي، السبب والسر الذي يكمن وراء هذه الظاهرة.

لماذا كانت الطريقة التجزيئية عاملاً في إعاقة النمو؟ ولماذا تكون الطريقة الموضوعية والاتجاه التوحيدي عاملاً في النمو والابداع وتوسيع نطاق حركة الاجتهاد؟ لكي نعرف لماذا كان هذا ولماذا كان ذاك؟ يجب أن نكوّن انطباعات أوضح وأكثر تحديداً عن هذين الاتجاهين: الاتجاه التجزيئي، والاتجاه التوحيدي، وإنما يتضح ذلك بعد ان نشرح بعض أوجه الاختلاف بين الاتجاهين، ويمكن توضيح بعض أوجه الاختلاف بين هذين الاتجاهين

التفسيريين فيما يلي:

أولاً: إن المفسر التجزيئي دوره في التفسير على الأغلب سلبي فهو يبدأ أولا بتناول النص القرآني المحدد آية مثلاً أو مقطعاً قرآنياً دون أي افتراضات أو طروحات مسبقة ويحاول ان يحدد المدلول القرآني على ضوء ما يسعفه به اللفظ مع ما يتاح له من القرائن المتصلة والمنفصلة، العملية في طابعها العام، عملية تفسير نص معين وكأن دور النص فيها دور المتحدث ودور المفسر هو الاصغاء والتفهم وهذا ما نسميه بالدور السلبي، المفسر هنا شغله أن يستمع لكن بذهن مضيء، بفكر صاف، بروح محيطة بآداب اللغة وأساليبها في التعبير، بمثل هذه الروح، بمثل هذه الذهنية وبمثل هذا الفكر يجلس بين يدي القرآن ليستمع، فهو ذو دور سلبي والقرآن ذو دور ايجابي والقرآن يعطي حينئذ وبقدر ما يفهم هذا المفسر من مدلول اللفظ يسجل في تفسيره.

وخلافاً لذلك المفسر التوحيدي والموضوعي فانه لا يبدأ عمله من النص بل من واقع الحياة، يركز نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية ويستوعب ما اثارته تجارب الفكر الانساني حول ذلك الموضوع من مشاكل وما قدمه الفكر الانساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من اسئلة ومن نقاط فراغ ثم يأخذ النص القرآني، لا ليتخذ من نفسه بالنسبة الى النص دور المستمع والمسجل فحسب، بل ليطرح بين يدي النص موضوعاً جاهزاً مشرباً بعدد كبير من الافكار والمواقف البشرية ويبدأ من النص القرآني حواراً سؤال وجواب، المفسر يسأل والقرآن يجيب، المفسر على ضوء الحصيلة التي استطاع ان

يجمعها من خلال التجارب البشرية الناقصة من خلال اعمال الخطأ والصواب التي مارسها المفكرون على الأرض لابد وان يكون قد جمع حصيلة ترتبط بذلك الموضوع ثم ينفصل عن هذه الحصيلة ليأتي ويجلس بين يدي القرآن الكريم، لا يجلس ساكتاً ليستمع فقط بل يجلس محاوراً، يجلس سائلاً ومستفهماً ومتدبراً فيبدأ مع النص القرآني حواراً حول هذا الموضوع، وهو يستهدف من ذلك ان يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح والنظرية التي بامكانه أن يستلهمها من النص، من خلال مقارنة هذا النص بما استوعبه الباحث عن الموضوع من أفكار واتجاهات.

ومن هنا كانت نتائج التفسير الموضوعي نتائج مرتبطة دائماً بتيار التجربة البشرية لأنها تمثل المعالم والاتجاهات القرآنية لتحديد النظرية الاسلامية بشأن موضوع من مواضيع الحياة.

ومن هنا ايضاً كانت عملية التفسير الموضوعي عملية حوار مع القرآن الكريم واستنطاق له، وليست مجرد استجابة سلبية بل استجابة فعالة وتوظيفاً هادفاً للنص القرآني في سبيل الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة الكبرى.

قال أمير المؤمنين عليه السلام وهو يتحدث عن القرآن الكريم «**ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن أخبركم عنه، ألا ان فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم ما بينكم**»[1]. التعبير بالاستنطاق الذي جاء في كلام ابن القرآن عليه السلام أروع تعبير عن عملية التفسير الموضوعي بوصفها

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٥٨.

حواراً مع القرآن الكريم وطرحاً للمشاكل الموضوعية عليه بقصد الحصول على الاجابة القرآنية عليها.

اذن فاول اوجه الاختلاف الرئيسية بين الاتجاه التجزيئي في التفسير والاتجاه الموضوعي في التفسير ان الاتجاه التجزيئي يكون دور المفسر فيه دوراً سلبياً يستمع ويسجل، بينما التفسير الموضوعي ليس هذا معناه وليس هذا كُنهه واما وظيفة التفسير الموضوعي دائماً في كل مرحلة وفي كل عصر ان يحمل كل تراث البشرية الذي عاشه، يحمل افكـار عـصره، يـحمل المقولات التي تعلمها في تجربته البشرية ثم يضعها بين يدي القرآن، الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ليحكم على هذه الحصيلة بما يمكن لهذا المفسر ان يفهمه، ان يستشفه، ان يتبينه من خلال مجموعة آياته الشريفة.

إذن فهنا يلتحم القرآن مع الواقع، يلتحم القرآن مع الحياة، لأن التفسير يبدأ من الواقع وينتهي الى القرآن لا انه يبدأ من القرآن وينتهي بـالقرآن فتكون عملية منعزلة عن الواقع منفصلة عن تراث التجربة البشرية، بـل هذه العملية تبدأ من الواقع وتنتهي بالقرآن بوصفه القيم والمـصدر الذي يحدد على ضوئه الاتجاهات الربانية بالنسبة الى ذلك الواقع.

ومن هنا تبقى للقرآن حينئذ قدرته على القيمومة دائماً، قدرته على العطاء المستجد دائماً، قدرته على الابداع، لأن المسألة هنا ليست مسألة تفسير لفظ، فإن طاقات التفسير اللغوي ليست طاقات لا متناهية بـينما القرآن الكريم دلت الروايات على انه لا ينفد وصرح القرآن الكريم بأن كلمات الله لا تنفد، القرآن الكريم عطاء لا ينفد بينما التفسير اللغوي ينفد

لأن اللغة لها طاقات محدودة، وليس هناك تجدد في المدلول اللغوي، ولو وجد تجدد في المدلول اللغوي فلا معنى لتحكيمه على القرآن، ولو وجدت لغة اخرى بعد القرآن لا معنى لأن يفهم القرآن من خلال لغة جديدة أو مصطلحات جديدة أو ألفاظ تحمل مدلولات وضعية استهدفت بعد القرآن.

اذن هذا العطاء الذي لا ينفد للقرآن، هذه المعاني التي لا تنتهي للقرآن التي نص عليها القرآن نفسه، ونصت عليه أحاديث أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، هذه الحالة من عدم النفاد، تكمن في هذا المنهج، منهج التفسير الموضوعي لأننا نستنطق القرآن وان في القرآن علم ما كان وعلم ما يأتي لأن في القرآن دواء دائنا، لأن في القرآن نظم ما بيننا، ولأن في القرآن ما يمكن ان نستشف منه مواقف السماء تجاه تجربة الأرض.

فمن هنا كان التفسير الموضوعي قادراً على ان يتطور، على ان ينمو، على ان يثرى لأن التجربة البشرية تثريه، والدرس القرآني والتأمل القرآني على ضوء التجربة البشرية يجعل هذا الثراء محمولاً الى فهم اسلامي قرآني صحيح، والحمد لله رب العالمين.

التفسير التجزيئي والتفسير التوحيدي
للقرآن الكريم (٢)[١]

كنا بصدد توضيح اوجه الاختلاف الرئيسية بين اتجاهين اساسيين في التفسير احدهما الاتجاه الموضوعي في التفسير والآخر الاتجاه التجزيئي في التفسير: يمكن ان يستخلص مما ذكرناه بالامس من التوضيحات انه يوجد هناك فارقان بارزان رئيسيان بين هذين الاتجاهين وتنبع من هذين الفارقين فوارق أخرى ثانوية.

الفارق الرئيسي الاول هو ان التفسير الموضوعي كما شرحنا بالامس يبدأ بالواقع الخارجي، بحصيلة التجربة البشرية، يتزود بكل ما وصلت الى يده من حصيلة هذه التجربة ومن افكارها ومن مضامينها. ثم يعود الى القرآن الكريم ليحكّم القرآن الكريم ويستنطق القرآن الكريم على حد تعبير الامام امير المؤمنين عليه السلام ويكون دوره دور المستنطق، دور الحوار، يكون دور المفسر دوراً ايجابياً ايضاً، دور المحاور، دور من يطرح المشاكل

١ ـ الدرس الثاني، يوم الأربعاء ١٨/ ج ١/ ١٣٩٩ هـ.

من يطرح الاسئلة، من يطرح الاستفهامات على ضـوء تـلك الحـصيلة البشرية، على ضوء تلك التجربة الثقافية التي استطاع الحصول عليها، ثم يتلقى من خلال عملية الاستنطاق، من خلال عملية الحوار مع اشـرف كتاب، يتلقى الاجوبة من ثنايا الآيات المتفرقة.

فهنا الابتداء بالتفسير الموضوعي يكون من الواقع ويعود الى القرآن الكريم، بينما التفسير التجزيئي يبدأ من القرآن وينتهي الى القرآن ليس فيه حركة من الواقع الى القرآن ومن القرآن الى الواقع وانـما يـبدأ بـالقرآن وينتهي بالقرآن، دور المفسر هنا دور سلبي كما شرحنا بالأمس[١]، يخلي ذهنه من أي سوابق، من أي طروحات، يـجلس جـلوس المسـتمع، لا جلوس المحاور، لا جلوس المستفهم، بل جلوس من يستمع ويسجل ما ينطبق في ذهنه نتيجة هذا الاستماع.

هذا هو الأمر الأول الذي شرحناه بالأمس[٢].

والأمر الثاني في المقام هو ان التفسير الموضوعي يـتجاوز التـفسير التجزيئي خطوة لأن التفسير التجزيئي يكتفي بإبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية الكريمة، بينما التفسير الموضوعي يطمح الى اكثر من ذلك يتطلع الى ما هو اوسع من ذلك، يحاول ان يستحصل اوجه الارتباط بين هذه المدلولات التفصيلية، يحاول ان يصل الى مركب نظري قرآني، وهذا المركب النظري القرآني يحتل في اطاره كل واحد من تلك المـدلولات التفصيلية، موقعه المناسب وهذا ما نسميه بلغة اليوم بالنظرية، يصل الى

---

١ و ٢ ـ الدرس الأول.

نظرية قرآنية عن النبوة، نظرية قرآنية عن المذهب الاقتصادي، نظرية قرآنية عن سنن التاريخ، وهكذا عن السموات والأرض، فهنا التفسير الموضوعي يتقدم خطوة على التفسير التجزيئي بقصد الحصول على هذا المركب النظري الذي لابد ان يكون معبراً عن موقف قرآني تجاه موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية. هذان فارقان رئيسيان بين التفسير الموضوعي في القرآن، الاتجاه الموضوعي في التفسير والاتجاه التجزيئي في التفسير، ونحن ذكرنا بأن البحث الفقهي اتجه اتجاهاً موضوعياً بينما التفسير لم يتجه على الاكثر اتجاهاً موضوعياً بل كان اتجاهاً تجزيئياً.

اصطلاح الموضوعية هنا على ضوء الأمر الأول، بمعنى انه يبدأ من الموضوع، من الواقع الخارجي، من الشيء الخارجي ويعود الى القرآن الكريم، ويعبر عن التفسير بأنه موضوعي على ضوء الأمر الأول باعتبار انه يبدأ من الموضوع الخارجي وينتهي الى القرآن الكريم. وتوحيدي باعتبار انه يوحد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم لا بمعنى أنه يحمل التجربة البشرية على القرآن، لا بمعنى انه يخضع القرآن للتجربة البشرية، بل بمعنى أنه يوحد بينهما في سياق بحث واحد لكي يستخرج نتيجة هذا السياق الموحد من البحث، يستخرج المفهوم القرآني الذي يمكن ان يحدد موقف الاسلام تجاه هذه التجربة او المقولة الفكرية التي ادخلها في سياق بحثه. اذن التفسير موضوعي وتوحيدي على اساس الأمر الأول، على اساس الأمر الثاني ايضاً كون التفسير موضوعياً باعتبار انه يختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد. وهو توحيدي باعتبار انه

يوحد بين هذه الآيات، يوحد بين مدلولات هذه الآيات ضمن مـركب نظري واحد اذن اصطلاح الموضوعية واصطلاح التوحيدية في التفسير ينسجم مع كل من هذين الفارقين بما بيناه.

ولا نقصد بالموضوعية هنا الموضوعية في مقابل التحيز مثلاً ما يقال عادة من ان هذا البحث موضوعي في مقابل ان يكون بـحثاً مـتحيزاً أو منحازاً! طبعاً الموضوعية بذلك المعنى مرفوضة في التـفسير التـجزيئي والتفسير الموضوعي معاً.

ليست الموضوعية بذلك المعنى من مزايا التفسير الموضوعي في مقابل التفسير التجزيئي، الموضوعية بذلك المعنى عبارة عن الامانة في البحث، عبارة عن الاستقامة على جادة البحث، تلك الموضوعية مفترضة في كلا الاتجاهين، وانما الموضوعية التي نجعلها في مقابل التجزيئية غير تلك الموضوعية التي تقابل الذاتية والتحيز، الموضوعية هنا بمعنى ان يبدأ من الموضوع وينتهي الى القرآن، هذا الأمر الأول. الأمـر الثـاني ان يـختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد يقوم بعملية توحيد بـين مدلولاتها، من أجل ان يستخرج نظرية قرآنية شاملة بـالنسبة الى ذلك الموضوع.

ان الأبحاث الفقهية سارت في الاتجاه الموضوعي بينما الابحاث التفسيرية سارت في الاتجاه التجزيئي، طبعاً لم نكن نعني من ذلك ايضاً ان البحث الفقهي استنفد طاقة الاتجاه الموضوعي، البحث الفقهي سار في الاتجاه الموضوعي ولكنه لم يستنفد ايضاً طاقة الاتجاه الموضوعي، والبحث الفقهي اليوم مدعو ايضاً الى ان يستنفد طاقة هـذا الاتـجاه المـوضوعي افـقياً

وعمودياً؛ اما افقياً لابد وأن يستنفد طاقة الاتجاه الموضوعي باعتبار ان الاتجاه الموضوعي كما قلنا عبارة عن ان يبدأ الانسان من الواقع وينتهي الى الشريعة.

هذا كان ديدن العلماء ديدن الفقهاء كانوا بالواقع، وقائع الحياة تكاد تنعكس عليهم على شكل جعالة، مضاربة، مزارعة، مساقاة، نكاح... كانت هذه الحوادث وهذه الوقائع تنعكس عليهم، ثم يأخذون هذا الواقع ويأتون الى مصادر الشريعة ليستنبطوا الحكم من مصادر الشريعة، هذا اتجاه موضوعي لأنه يبدأ بالواقع وينتهي الى الشريعة في مقام التعرف على حكم هذا الواقع.

لكن هنا لابد ان يمتد الفقه افقياً على هذه الساحة اكثر لأن العلماء الذين ساهموا في تكوين هذا الاتجاه الموضوعي عبر قرون متعددة كانوا حريصين على ان يأخذوا هذه الوقائع، ويحولوها دائماً الى الشريعة لكي يستنبطوا احكام الشريعة المرتبطة بتلك الوقائع ولكن وقائع الحياة تتجدد وتتكاثر باستمرار وتتولد ميادين جديدة من وقائع الحياة، لا بد لهذه العملية من النمو باستمرار، من ان تنمو، من ان تحول كل ما يستجد من وقائع الحياة، من ان تبدأ من الواقع، لكن ذاك الواقع الساكن المحدود الذي كان يعيشه الشيخ الطوسي أو الذي كان يعيشه المحقق الحلي، ذاك الواقع كان يفي بحاجات عصر الشيخ الطوسي، كان يفي بحاجات عصر المحقق الحلي. لكن كم من باب وباب من أبواب الحياة فتحت بالتدريج، لا بد من عرض هذه الأبواب على الشريعة إذا أردنا أن يستمر الاتجاه الموضوعي في البحث الفقهي، لا بد وأن نمدده أفقياً على مستوى ما استجد من أبواب

الحياة، كم من باب من أبواب الحياة استجد لم يكن معروفاً سابقاً: التجارة والمضاربة والمزارعة والمساقاة كانت تمثل السوق قبل ألف سنة أو قبل ثمانمائة سنة ولكن اليوم السوق، المعاملات، العلاقات الاقتصادية أوسع من هذا النطاق وأكثر تشابكاً من هذا النطاق، اذن لا بد للفقه من أن يكون كما كان على يد هؤلاء العلماء الذين كانوا حريصين على ان يعكسوا كل ما يستجد من وقائع الحياة على الشريعة ليأخذوا حكم الشريعة. لا بد ايضاً من ان هذه العملية تسير افقياً كما سارت افقياً في البداية. هذا من الناحية الأفقية.

من الناحية العمودية ايضاً لا بد من ان يتوغل هذا الاتجاه الموضوعي في الفقه، لا بد وان يتوغل، لا بد وان ينفذ عمودياً، لا بد وان يصل الى النظريات الاساسية، لابد وان يكتفي بالبناءات العلوية وبالتشريعات التفصيلية، لا بد وان ينفذ من خلال هذه البناءات العلوية الى النظريات الأساسية التي تمثل وجهة نظر الاسلام لأننا نعلم ان كل مجموعة من التشريعات في كل باب من أبواب الحياة ترتبط بنظريات أساسية، ترتبط بتطورات رئيسية. أحكام الاسلام، تشريعات الاسلام، في مجال الحياة الاقتصادية ترتبط بنظرية الإسلام بالمذهب الاقتصادي في الاسلام، أحكام الاسلام في مجال النكاح والطلاق والزواج وعلاقات المرأة مع الرجل، ترتبط بنظرياته الاساسية عن المرأة والرجل ودور المرأة والرجل. هذه النظريات الأساسية التي تشكل القواعد النظرية لهذه الأبنية العلوية، لا بد ايضاً من التوغل إليها، لا ينبغي أن ينظر الى ذلك بوصفه عملاً منفصلاً عن الفقه، بوصفه ترفا، بوصفه نوع تفنن، بوصفه نوع أدب ليس

كذلك بل هذا ضرورة من ضرورات الفقه، لا بد من النفاذ لابد من التوغل عمودياً ايضاً الى تلك النظريات ومحاولة اكتشافها بقدر الطاقة البشرية.

الآن نعود الى التفسير بما ذكرناه من اوجه الاختلاف بين التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي، تبينت عدة افضليات تدعو الى تفضيل المنهج الموضوعي في التفسير على المنهج التجزيئي في التفسير، فان المنهج الموضوعي في التفسير على ضوء ما ذكرناه يكون اوسع افقاً وأرحب وأكثر عطاءً باعتبار انه يتقدم خطوة على التفسير التجزيئي كما انه قادر على التجدد باستمرار، على التطور والابداع باستمرار، باعتبار ان التجربة البشرية تغني هذا التفسير بما تقدمه من مواد.

ثم هذه المواد تطرح بين يدي القرآن الكريم لكي يستطيع هذا المفسر أن يتحصل الأجوبة من القرآن الكريم، وهذا هو الطريق الوحيد للحصول على النظريات الأساسية للإسلام وللقرآن تجاه موضوعات الحياة المختلفة.

وقد يقال بأنه ما الضرورة الى تحصيل هذه النظريات الاساسية؟ ما الضرورة الى ان نفهم نظرية الاسلام في النبوة مثلاً بشكل عام او ان نفهم نظرية الاسلام في سنن التاريخ وفي التغير الاجتماعي بشكل عام؟ ان نفهم نظرية الاسلام في الاقتصاد الاسلامي بشكل عام؟ ان نفهم مفهوم الاسلام عن السماوات والارض؟ ما الضرورة الى ان ندرس ونحدد هذه النظريات؟ فإننا نجد بأن النبي ﷺ لم يعط هذه النظريات على شكل نظريات محدودة وبصيغ عامة، وانما اعطى القرآن بهذا الترتيب للمسلمين.

ما الضرورة الى ان نتعب انفسنا في سبيل تحصيل هذه النظريات وتحديدها بعد ان لاحظنا ان النبي ﷺ اكتفى باعطاء هذا المجموع، هذا

الشكل المتراكم بهذا الشكل؟

ما الضرورة الى ان نستحصل هذه النظريات؟

الحقيقة بأن هناك اليوم ضرورة اساسية لتحديد هذه النظريات ولتحصيل هذه النظريات ولا يمكن ان يفترض الاستغناء عن ذلك. النبي ﷺ كان يعطي هذه النظريات ولكن من خلال التطبيق، من خلال المناخ القرآني العام الذي كان يبينه في الحياة الاسلامية، وكان كل فرد مسلم في اطار هذا المناخ، يفهم هذه النظرية ولو فهماً اجمالياً ارتكازياً لأن المناخ والاطار الروحي والاجتماعي والفكري والتربوي الذي وصفه النبي ﷺ كان قادراً على ان يعطي النظرة السليمة، والقدرة السليمة على تقييم المواقع والمواقف والاحداث، اذا اردنا ان نقرب هذه الفكرة نقول:

حالة بين حالتين: حالة انسان يعيش داخل عرف لغة من اللغات، وانسان يريد ان يفهم بأن ابناء هذه اللغة، ابناء هذا العرف، كيف تنتقل اذهانهم الى المعاني من الألفاظ؟ وكيف يحددون المعاني من الألفاظ؟.

هنا توجد حالتان: احداهما: ان نأتي بهذا الانسان ونجعله يعيش في اعماق هذا العرف، في اعماق هذه اللغة، إذا جعلته يعيش في اعماق هذا العرف وفي اعماق هذه اللغة واستمرت به الحياة في اطار هذا العرف وهذه اللغة فترة طويلة من الزمن سوف يتكون لديه الاطار اللغوي، والاطار العرفي الذي يستطيع من خلاله ان يتحرك ذهنه وفقاً لما يريده العرف واللغة منه لأن مدلولات اللغة وقواعد اللغة تكون موجودة وجوداً إجمالياً ارتكازياً في ذهنه، اللفظة السليمة، التقييم السليم للكلمة الصحيحة، وتمييزها عن الكلمة غير الصحيحة تكون موجودة عنده باعتبار انه عاش

عمق اللغة، عاش وجدانها، عاش اطارها، عاش تطبيقها، بينما اذا كـان الانسان خارج مناخ تلك اللغة، خارج عرف تلك اللغة عرفها وأردت أن تنشئ في ذهنه القدرة على التمييز اللغوي الصحيح، كـيف تسـتطيع ان تنشئ في ذهنه القدرة على التمييز اللغوي الصحيح؟ يكون ذلك عن طريق الرجوع الى قواعد تلك اللغة، حينئذ لا بد ان ترجع الى ذلك العرف الذي تربى في ذلك الانسان، ترجع الى ذلك العرف لكي تستنتج منه القواعد العامة والنظريات العامة نفس ما وقع بالنسبة الى علوم العربية كيف أن ابن اللغة لم يكن بحاجة الى أن يتعلم علوم العرب في البداية؟ لأنه كان يعيش في أعماق عرف اللغة، لكن بعد أن ابتعد عن تلك الأعماق، بعد ان اختلفت الأجواء، بعد ان ضعفت اللغة، بعد أن تراكـمت لغـات أخـرى إندست الى داخل حياة هؤلاء، بدأ هؤلاء يحتاجون الى علم اللغة، بدأ هؤلاء يحتاجون الى نظريات اللغة لأن الواقع لا يسعفهم بنظرة سليمة فلا بد اذن من علم، لا بد من نظريات لكي يفكروا ولكي يـناقشوا ولكـي يتصرفوا لغوياً وفقاً لتلك القواعد والنظريات.

هذا المثال مثال تقريبي لأجل توضيح الفكرة. اذن الصـحابة الذيـن عاشوا في كنف الرسول الاعظم ﷺ اذا كانوا لم يتلقوا النظريات بـصيغ عامة فقد تلقوها تلقياً اجمالياً ارتكازياً، انتقشت في اذهانهم وسرت في افكارهم، كان المناخ العام الاطار الاجتماعي والروحي والفكري الذي يعيشونه مساعداً على تفهم هذه النظريات ولو تفهماً اجمالياً وعلى توليد المقياس الصحيح في مقام التقييم. اما حيث لا يوجد ذلك المناخ، اما حيث لا يوجد ذلك الاطار اذن تكون الحاجة الى النظريات يعني الحاجة الى

دراسة نظريات القرآن والاسلام، حاجة حقيقية ملحة خصوصاً مع بروز النظريات الحديثة من خلال التفاعل بين انسان العالم الاسلامي وانسان العالم الغربي بكل ما يملك من رصيد عظيم ومن ثقافة متنوعة في مختلف مجالات المعرفة البشرية، حينما وقع هذا التفاعل بين انسان العالم الاسلامي وانسان العالم الغربي وجد الانسان المسلم نفسه امام نظريات كثيرة في مختلف مجالات الحياة فكان لابد لكي يحدد موقف الاسلام من هـذه النظريات، كان لابد وان يستنطق نصوص الاسلام، ويتوغل في أعماق هذه النصوص لكي يصل الى مواقف الاسلام الحقيقية سـلباً وايـجاباً لكـي يكتشف نظريات الاسلام التي تعالج نفس هذه المواضيع التي عـالجتها التجارب البشرية الذكية في مختلف مجالات الحياة.

اذن فالتفسير الموضوعي في المقام هو افضل الاتجاهين في التفسير إلّا ان هذا لا ينبغي ان يكون المقصود منه الاستغناء عن التفسير التجزيئي، هذه الافضلية لا تعني استبدال اتجاه باتجاه وطرح التـفسير التـجزيئي رأساً والأخذ بالتفسير الموضوعي، وإنما إضافة اتجاه الى اتجاه، لأن التفسير الموضوعي ليس إلّا خطوة الى الأمام بالنسبة الى التفسير التجزيئي ولا معنى للاستغناء عن التفسير التجزيئي باتجاه الموضوعي. اذن فالمسألة هنا ليست مسألة استبدال وانما هي مسألة ضم الاتجاه الموضوعي في التفسير الى الاتجاه التجزيئي في التفسير، يعني افتراض خطوتين، خـطوة هـي التفسير التجزيئي وخطوة أخرى هي التفسير الموضوعي.

السنن التاريخية
في القرآن الكريم (١)[1]

استعرضنا فيما سبق المبررات الموضوعية والفكرية لايثار التفسر الموضوعي التوحيدي على التفسير التجزيئي التقليدي باعتبار أن التفسير الموضوعي أغنى عطاءً وأكثر قدرة على التحرك والابداع وعلى تحديد المواقف النظرية الشاملة للقرآن الكريم.

الآن أود أن أذكر مبرراً عملياً وهو ان شوط التفسير التقليدي شوط طويل جداً لأنه يبدأ من الفاتحة وينتهي بسورة الناس، وهذا الشوط الطويل بحاجة من أجل اكماله الى فترة زمنية طويلة ايضاً. ولهذا لم يحظ من علماء الاسلام الأعلام إلّا عدد محدود بهذا الشرف العظيم، شرف مرافقة الكتاب الكريم من بدايته الى نهايته. ونحن نشعر بأن هذه الأيام المحدودة المتبقية لا تفي بهذا الشوط الطويل ولهذا كان من الافضل اختيار أشواط أقصر لكي نستطيع ان نكمل بضعة أشواط من هذه الجولات في رحاب

---

١ ـ الدرس الثالث، يوم الثلاثاء ٢٥/ج ١/ ١٣٩٩هـ.

القرآن الكريم.

من هنا سوف نختار موضوعات متعددة في القرآن الكريم ونستعرض ما يتعلق بذلك الموضوع وما يمكن أن يلقي عليه القرآن من أضواء، وسوف نحاول أن يكون البحث مضغوطاً بقدر الامكان لكي نستطيع أن نصل الى عدد من المواضيع المهمة، فنقتصر على الافكار الاساسية والمبادئ الرئيسية بالنسبة الى كل موضوع وسوف أحرص على أن لا يستوعب كل موضوع إلّا عدداً محدوداً من المحاضرات. أرجو أن يكون بين خمس الى عشر محاضرات لكي نستطيع أن نستوعب مواضيع متنوعة من القرآن الكريم.. الآن نوجه هذا السؤال:

ما هو الموضوع الاول الذي سوف نبدأ به الآن إن شاء الله تعالى؟

الموضوع الاول الذي سوف نختاره للبحث هو «سنن التاريخ في القرآن الكريم»! هل للتاريخ البشري سنن في مفهوم القرآن الكريم؟ هل له قوانين تتحكم في مسيرته وفي حركته وتطوره؟ ما هي هذه السنن التي تتحكم في التاريخ البشري؟ كيف بدأ التاريخ البشري؟ كيف نما؟ كيف تطور؟ ما هي العوامل الاساسية في نظرية التاريخ؟ ما هو دور الانسان في عملية التاريخ؟ ما هو موقع السماء أو النبوة على الساحة البشرية؟ هذا كله ما سوف ندرسه تحت هذا العنوان، عنوان سنن التاريخ في القرآن الكريم، وهذا الجانب من القرآن الكريم قد بحث الجزء الاعظم من مواده ومفرداته القرآنية لكن من زوايا مختلفة، فمثلاً قصص الانبياء عليهم السلام التي تمثل الجزء الاعظم من هذه المادة القرآنية، فحصت قصص الانبياء من زاوية تاريخية تناولها المؤرخون واستعرضوا الحوادث والوقائع التي تكلم عنها القرآن

الكريم. وحينما لاحظوا الفراغات التي تركها هذا الكتاب العزيز، حاولوا ان يملأوا هذه الفراغات بالروايات والاحاديث، او بما هو المأثور عن أديان سابقة، أو بالأساطير والخرافات فتكونت سجلات ذات طابع تاريخي لتنظيم هذه المادة القرآنية، كذلك ايضاً بحثت هذه المادة القرآنية من زاوية أخرى، من زاوية منهج القصة في القرآن، مدى ما يتمتع به هذا المنهج من أصالة وقوة وإبداع، ما تزخر به القصة القرآنية من حيوية، من حركة، من أحداث، هذه ايضاً زاوية اخرى للبحث في هذه المادة تضاف الى زوايا عديدة. نحن الآن نريد ان نتناول هذه المادة القرآنية من زاوية أخرى، من زاوية مقدار ما تلقي هذه المادة من أضواء على سنن التاريخ، على تلك الضوابط والقوانين والنواميس التي تتحكم في عملية التاريخ اذا كان يوجد في مفهوم القرآن شيء من هذه النواميس والضوابط والقوانين.

الساحة التاريخية كأي ساحة أخرى زاخرة بمجموعة من الظواهر كما ان الساحة الفلكية، الساحة الفيزيائية، الساحة النباتية زاخرة بمجموعة من الظواهر، كذلك الساحة التاريخية بالمعنى الذي سوف يفصل من التاريخ إن شاء الله بعد ذلك، زاخرة بمجموعة من الظواهر، كما ان الظواهر في كل ساحة أخرى من الساحات لها سنن ولها نواميس، من حقنا أن نتساءل: هل ان الظواهر التي تزخر بها الساحة التاريخية، هل هذه الظواهر ايضاً ذات سنن وذات نواميس؟ وما موقف القرآن الكريم من هذه السنن والنواميس؟ وما هو عطاؤه في مقام تأكيد هذا المفهوم ايجاباً أو سلباً، اجمالاً أو تفصيلاً؟

وقد يخيل الى بعض الاشخاص، اننا لا ينبغي ان نترقب من القرآن

الكريم أن يتحدث عن سنن التاريخ، لأن البحث في سنن التاريخ بحث علمي كالبحث في سنن الطبيعة والذرة والنبات. والقرآن الكريم لم ينزل كتاب اكتشاف بل كتاب هداية، القرآن الكريم لم يكن كتاباً مدرسياً، لم ينزل على رسول الله ﷺ بوصفه معلما بالمعنى التقليدي من المعلم لكي يدرّس مجموعة من المتخصصين والمثقفين، وإنما نزل هذا الكتاب عليه لكي يخرج الناس من الظلمات الى النور، من ظلمات الجاهلية الى نور الهداية والاسلام. اذن فهو كتاب هداية وتغيير وليس كتاب اكتشاف.

ومن هنا لا نترقب من القرآن الكريم ان يكشف لنا الحقائق والمبادئ العامة للعلوم الأخرى ولا نترقب من القرآن الكريم ان يتحدث لنا عن مبادئ الفيزياء أو الكيمياء أو النبات أو الحيوان. صحيح أن في القرآن الكريم إشارات الى كل ذلك، ولكنها إشارات بالحدود التي تؤكد على البعد الإلهي للقرآن، وبقدر ما يمكن أن يثبت العمق الرباني لهذا الكتاب الذي أحاط بالماضي والحاضر والمستقبل والذي استطاع أن يسبق التجربة البشرية مئات السنين في مقام الكشف عن حقائق متفرقة من الميادين العلمية المتفرقة، لكن هذه الإشارات القرآنية انما هي لأجل غرض علمي من هذا القبيل لا من أجل تعليم الفيزياء والكيمياء. القرآن لم يطرح نفسه بديلاً عن قدرة الانسان الخلاقة، عن مواهبه وقابلياته في مقام الكدح، الكدح في كل ميادين الحياة بما في ذلك ميدان المعرفة والتجربة، القرآن لم يطرح نفسه بديلاً عن هذه الميادين، وإنما طرح نفسه طاقة روحية موجهة للانسان، مفجرة طاقاته، محركة له في المسار الصحيح. فإذا صار القرآن الكريم كتاب هداية وتوجيه وليس كتاب اكتشاف وعلم فليس من

الطبيعي أن نترقب منه استعراض مبادئ عامة لكل واحد من هذه العلوم التي يقوم الفهم البشري بمهمة التوغل في اكتشاف نواميسها وقوانينها وضوابطها.

لماذا ننتظر من القرآن الكريم أن يعطينا عموميات، أن يعطينا مواقف، أن يبلور له مفهوماً علمياً في سنن التاريخ على هذه الساحة من ساحات الكون بينما ليس للقرآن مثل ذلك على الساحات الأخرى؟ ولا حرج على القرآن في ان لا يكون له ذلك على الساحات الأخرى، لأن القرآن لو صار في مقام استعراض هذه القوانين، وكشف هذه الحقائق لكان بذلك يتحول الى كتاب آخر نوعياً، يتحول من كتاب للبشرية جمعاء الى كتاب للمتخصصين يدرس في الحلقات الخاصة. قد يلاحظ بهذا الشكل على اختيار هذا الموضوع إلّا ان هذه الملاحظة رغم ان الروح العامة فيها صحيحة بمعنى أن القرآن الكريم ليس كتاب اكتشاف، ولم يطرح نفسه ليجمد في الانسان طاقات النمو والابداع والبحث، وإنما هو كتاب هداية، ولكن مع هذا يوجد فرق جوهري بين الساحة التاريخية وبقية ساحات الكون، هذا الفرق الجوهري يجعل من هذه الساحة ومن سنن هذه الساحة أمراً مرتبطا أشد الارتباط بوظيفة القرآن ككتاب هداية، خلافاً لبقية الساحات الكونية والميادين الأخرى للمعرفة البشرية، وذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية وعملية تغيير، هذه العملية التي عبر عنها في القرآن الكريم بأنها إخراج للناس من الظلمات الى النور.

وعملية التغيير هذه فيها جانبان: «الجانب الأول» جانب المحتوى والمضمون، ما تدعو اليه هذه العملية التغييرية من أحكام، من مناهج، ما

تتبناه من تشريعات، هذا الجانب من عملية التغيير جانب رباني، جانب إلهي سماوي، هذا الجانب يمثل شريعة الله سبحانه وتعالى التي نزلت على النبي محمد ﷺ وتحدّث بنفس نزولها عليه كل سنن التاريخ المادية لأن هذه الشريعة كانت أكبر من الجو الذي نزلت عليه، ومن البيئة التي حلت فيها، ومن الفرد الذي كلف بأن يقوم بأعباء تبليغها. هذا الجانب من عملية التغيير، جانب المحتوى والمضمون، جانب التشريعات والاحكام والمناهج التي تدعو اليها هذه العملية، هذا الجانب جانب رباني إلهي، لكن هناك جانب آخر لعملية التغيير التي مارسها النبي ﷺ وأصحابه الاطهار، هذه العملية حينما تلحظ بوصفها عملية متجسدة في جماعة من الناس وهم النبي والصحابة، بوصفها عملية اجتماعية متجسدة في هذه الصفوة، وبوصفها عملية قد واجهت تيارات اجتماعية مختلفة من حولها واشتبكت معها في ألوان من الصراع والنزاع العقائدي والاجتماعي والسياسي والعسكري، حينما تؤخذ هذه العملية التغييرية بوصفها، تجسيداً بوصفها تجسيداً بشرياً واقعاً على الساحة التاريخية مترابطاً مع الجماعات والتيارات الاخرى التي تكتنف هذا التجسيد والتي تؤيد أو تقاوم هذا التجسيد، حينما تؤخذ العملية من هذه الزاوية تكون عملية بشرية، يكون هؤلاء اناساً كسائر الناس تتحكم فيهم الى درجة كبيرة سنن التاريخ التي تتحكم في بقية الجماعات وفي بقية الفئات على مر الزمن.

اذن عملية التغيير التي مارسها القرآن ومارسها النبي ﷺ لها جانبان من حيث صلتها بالشريعة وبالوحي، هي ربانية، هي فوق التاريخ ولكن من حيث كونها عملاً قائماً على الساحة التاريخية، من حيث كونها جهداً

بشرياً يقاوم جهوداً بشرية اخرى، من هذه الناحية يعتبر هذا عملاً تاريخياً تحكمه سنن التاريخ وتتحكم فيه الضوابط التي وضعها الله سبحانه وتعالى لتنظيم ظواهر الكون في هذه الساحة المسماة بالساحة التاريخية ولهذا نرى ان القرآن الكريم حينما يتحدث عن الزاوية الثانية، عن الجانب الثاني من عملية التغيير يتحدث عن أناس، يتحدث عن بشر، لا يتحدث عن رسالة السماء، بل يتحدث عنهم بوصفهم بشراً من البشر تتحكم فيهم القوانين التي تتحكم في الآخرين. حينما أراد أن يتحدث عن انتصار المسلمين في غزوة أُحد بعد أن أحرزوا ذلك الانتصار الحاسم في غزوة بدر، بعد ذلك انكسروا وخسروا المعركة في غزوة أُحد، تحدث القرآن الكريم عن هذه الخسارة، ماذا قال؟ هل قال بأن رسالة السماء خسرت المعركة بعد ان كانت ربحت المعركة؟ لا.. لأن رسالة السماء فوق مقاييس النصر والهزيمة بالمعنى المادي، رسالة السماء لا تُهزم، ولن تُهزم أبداً، ولكن الذي يُهزم هو الانسان، الانسان حتى ولو كان هذا الانسان مجسداً لرسالة السماء، لأن هذا الانسان تتحكم فيه سنن التاريخ، ماذا قال القرآن؟ قال ﴿وتِلكَ الأيامُ نُداولها بينَ النَّاس﴾[1]. هنا أخذ يتكلم عنهم بوصفهم أناساً قال بأن هذه القضية هي في الحقيقة ترتبط بسنن التاريخ، المسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض أن ينتصروا، وخسروا المعركة في أُحد حينما كانت الشروط الموضوعية في معركة أُحد تفرض عليهم أن يخسروا المعركة: ﴿إن

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٤٠.

يَمسَسْكُم قرحٌ فقدْ مَسَّ القومَ قرحٌ مِثله وتلك الأيامُ نداولُها بين النّاس﴾[1]، لا تتخيلوا أن النصر حق إلهي لكم، وإنما النصر حق طبيعي لكم بقدر ما يمكن أن توفروا الشروط الموضوعية لهذا النصر بحسب منطق سنن التاريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونياً لا تشريعياً، وحيث أنكم في غزوة أحد لم تتوفر لديكم هذه الشروط ولهذا خسرتم المعركة. فالكلام هنا كلام مع بشر، مع عملية بشرية لا مع رسالة ربانية. بل يذهب القرآن الى أكثر من ذلك، يهدد هذه الجماعة البشرية التي كانت انظف واطهر جماعة على مسرح التاريخ، يهددهم بأنهم إذا لم يقوموا بدورهم التاريخي، وإذا لم يكونوا على مستوى مسؤولية رسالة السماء فإن هذا لا يعني أن تتعطل رسالة السماء، ولا يعني أن تسكت سنن التاريخ عنهم بل انهم سوف يُستبدلون، سنن التاريخ سوف تعزلهم وسوف تأتي بأمم أخرى قد تهيأت لها الظروف الموضوعية الأفضل لكي تلعب هذا الدور، لكي تكون شهيدة على الناس إذا لم تتهيأ لهذه الأمة الظروف الموضوعية لهذه الشهادة ﴿إلّا تَنفروا يُعذِّبكُم عذاباً أليماً، ويَستبدلْ قوماً غيركُم ولا تضرُّوه شيئاً والله على كل شيءٍ قدير﴾[2]، ﴿يا أيُّها الذين آمنوا من يرتدَّ منكُمْ عن دينهِ فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهُمْ ويحبُّونه أذلَّةٍ على المؤمنينَ أعزَّةٍ على الكافرينَ يجاهدونَ في سبيل الله ولا يخافونَ لومةَ لائمٍ ذلك فضلُ الله يؤتيهِ من يشاءُ والله واسعٌ عليمٌ..﴾[3]. إذن فالقرآن الكريم إنما يتحدث مع الجانب الثاني من عملية

---

١ ـ نفس الآية السابقة.

٢ ـ سورة التوبة، الآية ٣٩.

٣ ـ سورة المائدة، الآية ٥٤.

التغيير، يتحدث مع البشر في ضعفه وقوته، في استقامته وانحرافه، في توفر الشروط الموضوعية له وعدم توفرها.

من هنا يظهر بأن البحث في سنن التاريخ مرتبط ارتباطاً عضوياً شديداً بكتاب الله بوصفه كتاب هدى، بوصفه كتاب اخراج للناس من الظلمات الى النور، لأن الجانب العملي من هذه العملية، الجانب البشري والتطبيقي من جانب هذه العملية جانب يخضع لسنن التاريخ، فلا بد اذن ان نستلهم، ولا بد اذن ان يكون للقرآن الكريم تصورات وعطاءات في هذا المجال لتكوين اطار عام للنظرة القرآنية والاسلامية عن سنن التاريخ.

اذن هذا لا يشبه سنن الفيزياء والكيمياء والفلك والحيوان والنبات، تلك السنن ليست داخلة في نطاق التأثير المباشر على عملية التاريخ ولكن هذه السنن داخلة في نطاق التأثير المباشر على عملية التغيير. باعتبار الجانب الثاني، اذن لا بد من شرح ذلك ولا بد ان نترقب من القرآن اعطاء عموميات في ذلك، نعم لا ينبغي ان نترقب من القرآن ان يتحول ايضاً الى كتاب مدرسي في علم التاريخ وسنن التاريخ بحيث يستوعب كل التفاصيل وكل الجزئيات حتى ما لا يكون له دخل في منطق عملية التغيير التي مارسها النبي ﷺ، وانما القرآن الكريم يحتفظ دائماً بوصفه الاساسي والرئيسي، يحتفظ بوصفه كتاب هداية، كتاب اخراج للناس من الظلمات الى النور، وفي حدود هذه المهمات الكبيرة العظيمة التي مارسها في صدور هذه المهمة يعطي مقولاته على الساحة التاريخية ويشرح سنن التاريخ بالقدر الذي يلقي ضوءاً على عملية التغيير التي مارسها النبي ﷺ بقدر ما يكون موجهاً وهادياً وخالقاً لتبصُّر موضوعي للأحداث والظروف

والشروط.

ونحن في القرآن الكريم نلاحظ أن هذه الحقيقة، حقيقة ان للتاريخ سنناً، ان الساحة التاريخية عامرة بسنن كما عمرت كل الساحات الكونية الأخرى بسنن. هذه الحقيقة نراها واضحة في القرآن الكريم، فقط بُيّنت هذه الحقيقة بأشكال مختلفة وبأساليب متعددة في عدد كثير من الآيات بُيّنت على مستوى اعطاء نفس هذا المفهوم بالنحو الكلي، ان للتاريخ سنناً وإنّ للتاريخ قوانين، وبيّنت هذه الحقيقة في آيات اخرى على مستوى عرض هذه القوانين وبيان مصاديق ونماذج وأمثلة من هذه القوانين التي تتحكم في المسيرة التاريخية للانسان، وبُيّنت في سياق آخر على نحو تمتزج فيه النظرية، أي بيّن المفهوم الكلي وبيّن في إطار مصداقه، وفي آيات اخرى حصل الحث الأكيد على الاستفادة من الحوادث الماضية وشحذ الهمم لايجاد عملية استقراء للتاريخ، وعملية الاستقراء للحوادث كما تعلمون هي عملية علمية بطبيعتها، تريد أن تفتش عن سنّة، عن قانون، وإلّا فلا معنى للاستقراء من دون افتراض سنّة أو قانون، إذن هناك السنة متعددة درجت عليها الآيات القرآنية في مقام توضيح هذه الحقيقة وبلورتها.

السنن التاريخية

في القرآن الكريم (٢)[١]

قلنا ان هذه الفكرة القرآنية عن سنن التاريخ، بلورت في عدد كثير من الآيات بأشكال مختلفة وألسنة متعددة، في بعض هذه الآيات اعطيت الفكرة بصيغتها الكلية، وفي بعض الآيات اعطيت على مستوى التطبيق على مصاديق ونماذج، في بعض الآيات وقع الحث على الاستقراء وعلى الفحص الاستقرائي للشواهد التاريخية، من اجل الوصول الى السنة التاريخية.

وهناك عدد كثير من الآيات الكريمة استعرضت هذه الفكرة بشكل وآخر، وسوف نقرأ جملة من هذه الآيات الكريمة، وبعض هذه الآيات التي سوف نستعرضها واضح الدلالة على المقصود، والبعض الآخر له نحو دلالة بشكل وآخر او يكون معززاً ومؤيداً للروح العامة لهذه الفكرة القرآنية.

فمن الآيات الكريمة التي اعطيت فيها الفكرة الكلية، فكرة ان التاريخ له سنن وله ضوابط ما يلي:

---

١ ـ الدرس الرابع، يوم الأربعاء ٢٦/ ج ١/ ١٣٩٩ هـ.

﴿لكُلِّ أمّةٍ أجلٌ فإذا جاءَ أجلهُم فلا يستأخرونَ ساعةً ولا يستقدمونَ﴾[1].

﴿لكُلِّ أمّةٍ أجلٌ فإذا جاءَ أجلهُم لا يستأخرونَ ساعةً ولا يستقدمونَ﴾[2].

نلاحظ في هاتين الآيتين الكريمتين، أن الأجل أضيف إلى الأمة، إلى الوجود المجموعي للناس، لا إلى هذا الفرد بالذات أو هذا الفرد بالذات، إذن هناك وراء الأجل المحدود المحتوم لكل إنسان بوصفه الفردي، هناك أجل آخر وميقات آخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفراد، للأمة بوصفها مجتمعا يُنشئ ما بين أفراده العلاقات والصلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادئ المسندة بمجموعة من القوى والقابليات، هذا المجتمع الذي يعبر عنه القرآن الكريم بالأمة، هذا له أجل، له موت، له حياة، له حركة، كما أن الفرد يتحرك فيكون حياً ثم يموت كذلك الأمة تكون حية ثم تموت، وكما أن موت الفرد يخضع لأجل ولقانون ولناموس كذلك الأمم ايضاً لها آجالها المضبوطة.

وهناك نواميس تحدد لكل أمة هذا الأجل، إذن هاتان الآيتان الكريمتان فيهما عطاء واضح للفكرة الكلية، فكرة أن التاريخ له سنن تتحكم به وراء السنن الشخصية التي تتحكم في الأفراد، بهوياتهم الشخصية:

﴿وَما أهلكْنَا مِنْ قريةٍ إلّا ولها كتابٌ معلومٌ ما تَسبِقُ مِنْ أمَّةٍ أجلها وما يستأخرونَ﴾[3].

---

١ ـ سورة يونس، الآية ٤٩.

٢ ـ سورة الاعراف، الآية ٣٤.

٣ ـ سورة الحجر، الآية ٤ ـ ٥.

﴿ما تَسبق من أُمَّةٍ أجلها وما يستأخِرون﴾[1].

﴿أولَم ينظروا في ملكوتِ السَّمواتِ والأرض وما خَلَقَ الله من شيءٍ وأن عسى أن يكونَ قد اقتربَ أجلُهُم فبأيِّ حديثٍ بعدهُ يؤمنونَ﴾[2].

ظاهر الآية الكريمة أن الأجل الذي يترقب أن يكون قريباً أو يهدد هؤلاء بأن يكون قريباً، هو الأجل الجماعي لا الأجل الفردي، لأن قوماً بمجموعهم لا يموتون عادة في وقت واحد وإنما الجماعة بوجودها المعنوي الكلي هو الذي يمكن ان يكون قد اقترب أجله.

فالأجل الجماعي هنا يعبر عن حالة قائمة بالجماعة، لا عن حالة قائمة بهذا الفرد أو بذاك، لأن الناس عادة تختلف آجالهم حينما ننظر إليهم بالمنظار الفردي، لكن حينما ننظر إليهم بالمنظار الاجتماعي بوصفهم مجموعة واحدة متفاعلة في ظلمها وعدلها، في سرّائها وضرائها، حينئذ يكون لها أجل واحد، فهذا الأجل الجماعي المشار إليه إنما هو أجل الأمة، وبهذا تلتقي هذه الآية الكريمة مع الآيات السابقة ﴿وربُّكَ الغفورُ ذو الرحمةِ لو يؤاخِذُهُم بما كسبوا لعجَّلَ لهمُ العذابَ بل لهُمْ موعدٌ لن يجدوا مِنْ دونهِ موئلاً وتلك القُرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لِمَهلِكِهم موعداً﴾[3].

﴿ولوْ يؤاخذُ الله النّاس بما كَسَبوا ما ترك على ظهرها من دابةٍ ولكنْ

---

١ ـ سورة المؤمنون، الآية ٤٣.

٢ ـ سورة الاعراف، الآية ١٨٥.

٣ ـ سورة الكهف، الآية ٥٨ ـ ٥٩.

يؤخِّرُهم إلى أجلٍ مُسمّىً فإذا جاء أجلُهُمْ فإنّ الله كانَ بعبادهِ بصيراً﴾[1].

في هاتين الآيتين الكريمتين تحدث القرآن الكريم عن أنه لو كان الله يريد أن يؤاخذ الناس بظلمهم، وبما كسبوا لما ترك على ساحة الناس من دابة، يعني لأهلك الناس جميعاً.

وقد وقعت مشكلة في كيفية تصوير هذا المفهوم القرآني، حيث ان الناس ليسوا كلهم ظالمين عادة، فيهم الأنبياء، فيهم الأئمة، فيهم الأوصياء. هل يشمل الهلاك الأنبياء، والأئمة العدول من المؤمنين؟ حتى ان بعض الناس استغل هاتين الآيتين لانكار عصمة الأنبياء عليهم السلام.

والحقيقة ان هاتين الآيتين تتحدثان عن عقاب دنيوي لا عن عقاب أخروي، تتحدث عن النتيجة الطبيعية لما تكسبه امة عن طريق الظلم والطغيان، هذه النتيجة الطبيعية لا تختص حينئذ بخصوص الظالمين من أبناء المجتمع، بل تعم أبناء المجتمع على اختلاف هوياتهم، وعلى اختلاف انحاء سلوكهم.

حينما وقع التيه على بني اسرائيل نتيجة ما كسب هذا الشعب ظلمه وطغيانه وتمرده، هذا التيه لم يختص بخصوص الظالمين من بني اسرائيل، وانما شمل موسى عليه السلام، شمل اطهر الناس وازكى الناس، واشجع الناس في مواجهة الظلمة والطواغيت، شمل موسى عليه السلام لأنه جزء من تلك الامة وقد حلّ الهلاك بتلك الأمة، قد قرر نتيجة ظلمهم ان يتيهوا أربعين عاماً، وبهذا شمل التيه موسى عليه السلام.

---

١ ـ سورة فاطر، الآية ٤٥.

حينما حل البلاء والعذاب بالمسلمين نتيجة انحرافهم فأصبح يزيد بن معاوية خليفة عليهم يتحكم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وعقائدهم، حينما حلّ هذا البلاء لم يختص بالظالمين من المجتمع الاسلامي، وقتئذ شمل الحسين عليه السلام، أطهر الناس وأزكى الناس وأطيب الناس وأعدل الناس، شمل الإمام المعصوم عليه السلام، قتل تلك القتلة الفظيعة هو واصحابه وأهل بيته.

هذا كله هو منطق سنة التاريخ، والعذاب حينما يأتي في الدنيا على مجتمع وفق سنن التاريخ، لا يختص بخصوص الظالمين من ابناء ذلك المجتمع ولهذا قال القرآن الكريم في آية أخرى ﴿واتَّقوا فِتنةً لا تُصيبنَّ الَّذينَ ظلموا مِنكُم خاصةً واعلموا أنَّ اللهَ شديدُ العقاب﴾[1] بينما يقول في موضع آخر ﴿ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى﴾[2]. فالعقاب الأخروي دائماً ينصبّ على العامل مباشرة، وأما العقاب الدنيوي فيكون أوسع من ذلك، اذن هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان عن سنن التاريخ لا عن العقاب بالمعنى الاخروي والعذاب بمعنى مقاييس يوم القيامة، بل عن سنن التاريخ وما يمكن ان يحصل نتيجة كسب الامة، سعي الامة، جهد الامة.

﴿وان كادوا ليسْتَفزُّونك من الارضِ ليُخْرجوكَ مِنْها واذاً لا يلبثونَ خلافكَ إلّا قليلاً سُنَّةَ من قدْ أرسلنا قبلكَ من رُسُلنا ولا تجدُ لسُنَّتنا تحويلاً﴾[3].

---

١ ـ سورة الانفال، الآية ٢٥.

٢ ـ سورة فاطر، الآية ١٨.

٣ ـ سورة الاسراء: الآية ٧٦ ـ ٧٧.

هذه الآية الكريمة ايضاً تؤكد المفهوم العام، يقول **﴿ولا تجدُ لسُنَّتنا تحويلاً﴾**، هذه سنة سلكناها مع الانبياء من قبلك، وسوف تستمر ولن تتغير. أهل مكة يحاولون أن يستفزوك لتخرج من مكة لأنهم عجزوا عن امكانية القضاء عليك، وعلى كلمتك وعلى دعوتك، ولهذا صار أمامهم طريق واحد وهو اخراجك من مكة.

وهناك سنة من سنن التاريخ سوف يأتي إن شاء الله شرحها بعد ذلك يشار اليها في هذه الآية الكريمة. وهي أنه اذا وصلت عملية المعارضة الى مستوى اخراج النبي من هذا البلد، بعد عجز هذه المعارضة عن كل الوسائل والاساليب الاخرى، فانهم لا يلبثون إلّا قليلاً. ليس المقصود من انهم لا يلبثون إلّا قليلاً، يعني انه سوف ينزل عليهم عذاب الله سبحانه وتعالى من السماء، لأن أهل مكة أخرجوا النبي بعد نزول هذه السورة. استفزوه وارعبوه وخرج النبي ﷺ من مكة اذ لم يجد له ملجأ وأماناً في مكة فخرج الى المدينة ولم ينزل عذاب من السماء على أهل مكة، وانما المقصود في أكبر الظن من هذا التعبير أنهم لا يمكثون كجماعة صامدة معارضة يعني كموقع اجتماعي لا يمكثون، لاكأناس، كبشر، وانما هذا الموقع سوف ينهار نتيجة هذه العملية، سوف ينهار هذا الموقع، لا يمكثون إلّا قليلاً لأن هذه النبوة التي عجز هذا المجتمع عن تطويقها سوف تستطيع بعد ذلك ان تهز هذه الجماعة كموقع للمعارضة، وهذا ما وقع فعلا. فإن رسول الله ﷺ حينما أُخرج من مكة لم يمكثوا بعده إلّا قليلاً، اذ فقدت المعارضة في مكة موقعها، وتحولت مكة الى جزء من دار الاسلام بعد سنين معدودة.

اذن الآية تتحدث عن سنّة من سنن التاريخ، وتؤكد وتقول **﴿ولا تجدُ**

لسُنَّتنا تحويلاً﴾.

﴿قدْ خلت من قبلكُم سُنَنٌ فسيروا في الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذِّبين﴾[1]. تؤكد هذه الآية على السنن وتؤكد على الحق والتتبع لاحداث التاريخ من أجل استكشاف هذه السنن، من أجل الاعتبار بهذه السنن. ﴿ولقَدْ كُذِّبتْ رسلٌ من قبلكَ فصبروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا حتّى أتاهم نصرُنا ولا مُبدِّلَ لكلماتِ الله ولقد جاءك من نبأ المُرسَلينَ...﴾[2]. هذه الآية ايضاً تثبّت قلب رسول الله ﷺ، تحدثه عن التجارب السابقة، تربطه بقانون التجارب السابقة، توضح له أن هناك سنة تجري عليه وتجري على الانبياء الذين مارسوا هذه التجربة من قبله وان النصر سوف يأتيه ولكن للنصر شروطه الموضوعية: الصبر، والثبات، واستكمال الشروط، هذا هو طريق الحصول على هذا النصر، ولهذا يقول ﴿فصبَروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا حتّى أتاهم نصرُنا ولا مُبدِّلَ لكلماتِ الله﴾ اذن هناك كلمة لله لا تتبدل على مر التاريخ، هذه الكلمة التي لا تتبدل هي علاقة قائمة بين النصر وبين مجموعة من الشروط والقضايا والمواصفات وضحت من خلال الآيات المتفرقة وجمعت على وجه الاجمال هنا، اذن فهناك سنّة للتاريخ: ﴿فلمّا جاءَهُم نذيرٌ ما زادَهُمْ إلّا نفوراً استكباراً في الأرضِ ومكرَ السَّيِّئ ولا يحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلّا بأهلِهِ فهل ينظرون إلّا سنَّة الاوّلينَ فلن تجدَ لسُنّةِ اللهِ تبديلاً ولن تجد لسُنَّةِ اللهِ تحويلاً﴾[3]. ﴿ولو قاتلكُمُ الّذينَ كفروا لولّوا الأدبارَ ثمَّ لا

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٣٧.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٣٤.

٣ ـ سورة فاطر، الآية ٤٣.

يجدونَ وليّاً ولا نصيراً سُنَّةَ اللهِ التي قد خلت مِنْ قبلُ ولنْ تجدَ لسُنّةِ اللهِ تبديلاً﴾[1]. هناك آيات استعرضت نماذج من سنن التاريخ ﴿إنَّ اللهَ لا يغيّرُ ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسِهِم﴾[2]، المحتوى الداخلي النفسي الروحي للانسان هو القاعدة، الوضع الاجتماعي هو البناء العلوي، لا يتغير هذا البناء العلوي إلّا وفقاً لتغيّر القاعدة على ما يأتي إن شاء الله شرحه بعد ذلك.

هذه الآية اذن تتحدث عن علاقة معينة بين القاعدة والبناء العلوي، بين الوضع النفسي والروحي والفكري للانسان، وبين الوضع الاجتماعي، بين داخل الانسان وبين خارج الانسان، فخارج الانسان، يصنعه داخل الانسان، مرتبط بداخل الانسان، فاذا تغير ما بنفس القوم تغير ما هو وضعهم، وما هي علاقاتهم وما هي الروابط التي تربط بعضهم ببعض.

اذن فهذه سنة من سنن التاريخ، ربطت القاعدة بالبناء العلوي ﴿ذلكَ بأنَّ الله لم يكُ مغيِّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتّى يُغيّروا ما بأنفسِهِم﴾[3]. ﴿أم حسبتُم أن تدخُلوا الجنَّةَ ولمّا يَأتِكُم مثلُ الّذينَ خلوا من قبلكُمْ مسّتهُمُ البأساءُ والضراءُ وزلزلوا حتى يقول الرَّسولُ والّذينَ آمنوا معه متى نصرُ اللهِ ألا إنَّ نصرَ الله قريبٌ﴾[4]، يستنكر عليهم ان يأملوا في ان يكون لهم استثناء من سنة التاريخ، هل تطمعون ان يكون لكم استثناء من سنة التاريخ! وان

---

١ ـ سورة الفتح، الآية ٢٣.

٢ ـ سورة الرعد، الآية ١١.

٣ ـ سورة الانفال، الآية ٥٣.

٤ ـ سورة البقرة، الآية ٢١٤.

تدخلوا الجنة وان تحققوا النصر، وانتم لم تعيشوا ما عاشته تلك الامم التي انتصرت ودخلت الجنة من ظروف البأساء والضراء التي تصل الى حد الزلزال على ما عبَّر القرآن الكريم؟ ان هذه الحالات، حالات البأساء والضراء التي تتعملق على مستوى الزلزال هي في الحقيقة مدرسة للامة، هي امتحان لارادة الامة، لصمودها، لثباتها، لكي تستطيع بالتدريج ان تكتسب القدرة على أن تكون امة وسطاً بين الناس.

اذن نصر الله قريب لكن نصر الله له طريق. هكذا يريد ان يقول القرآن، نصر الله ليس أمراً عفوياً، ليس أمراً على سبيل الصدفة، ليس امرا عمياوياً، نصر الله قريب ولكن اهتد الى طريقه، الطريق لا بد وان تعرف فيه سنن التاريخ، لابد وان تعرف فيه منطق التاريخ لكي تستطيع ان تهتدي الى نصر الله سبحانه وتعالى. قد يكون الدواء قريباً من المريض لكن اذا كان هذا المريض لا يعرف تلك المعادلة العلمية التي تؤدي الى اثبات ان هذا الدواء يقضي على جرثومة هذا الداء، لا يستطيع ان يستعمل هذا الدواء حتى ولو كان قريباً منه.

اذن الاطلاع على سنن التاريخ هو الذي يمكّن الانسان من التوصل الى النصر. فهذه الآية تستنكر على المخاطبين لها ان يكونوا طامعين في الاستثناء من سنن التاريخ ﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نذيرٍ إلّا قال مُترفوها إنّا بما أُرسلتُمْ بهِ كافرونَ وقالوا نحنُ اكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحنُ بمعذّبين..﴾[1]. هذه علاقة قائمة بين النبوة على مر التاريخ، وبين موقع المترفين والمسرفين

---

١ ـ سورة سبأ، الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.

في الامم والمجتمعات. هذه العلاقة تمثل سنة من سنن التاريخ، وليست ظاهرة وقعت في التاريخ صدفة والا لما تكررت بهذا الشكل المطرد، لما قال ﴿وما ارسلْنا في قريةٍ من نذيرٍ إلّا قال مُترفوها﴾ اذن هناك علاقة سلبية، هناك علاقة تطارد وتناقض، بين موقع النبوة الاجتماعي في حياة الناس على الساحة التاريخية والموقع الاجتماعي للمترفين والمسرفين، هذه العلاقة ترتبط في الحقيقة بدور النبوة في المجتمع ودور المترفين والمسرفين في المجتمع، هذه العلاقة جزء من رؤية موضوعية عامة للمجتمع، كما سوف يتضح إن شاء الله حينما نبحث عن دور النبوة في المجتمع والموقع الاجتماعي للنبوة، سوف يتضح حينئذ ان النقيض الطبيعي للنبوة هي موقع المترفين والمسرفين.

اذن هذه سنة من سنن التاريخ ﴿... واذا أردنا ان نُهلِكَ قريةً أمَرْنا مُترَفيها ففسقُوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميراً وكم أهلكنا من القرونِ من بعد نوحٍ وكفى بربّكَ بذنوبِ عبادهِ خبيراً بصيراً﴾[1].

هذه الآية ايضاً تتحدث عن علاقة معينة بين ظلم يسود وظلم يسيطر وبين هلاك تجر اليه الامة جراً، وهذه العلاقة ايضاً الآية تؤكد انها علاقة مطلقة، علاقة مطردة على مر التاريخ وهي سنة من سنن التاريخ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُم اقاموا التَّوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ اليهمْ من ربِّهم لأَكلوا من فوقِهم ومنْ تحتِ أرجُلِهم..﴾[2].

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ١٦ ـ ١٧.

٢ ـ سورة المائدة، الآية ٦٦.

﴿ولو أنَّ أهلَ القُرى آمنوا واتَّقوا لفتحنا عليهمْ بركاتٍ من السّماءِ والارضِ ولكن كذَّبوا فأخذناهُم بما كانوا يكسبونَ﴾[1].

﴿وأن لو استقاموا على الطّريقةِ لاسقيناهُم ماءً غدقا بل قالوا إنّا وجدنا آباءَنا على أمَّةٍ وإنّا على آثارهم مهتدونَ﴾[2].

﴿وكذلكَ ما ارسلنا مِن قبلكَ في قريةٍ من نذير إلّا قال مُترفوها إنّا وجدنا آباءَنا على أُمّةٍ وإنّا على آثارهِم مُقتدون﴾[3].

هذه الآيات الثلاث ايضاً تتحدث عن علاقة معينة هي علاقة بين الاستقامة وتطبيق احكام الله سبحانه وتعالى وبين وفرة الخيرات ووفرة الانتاج، وبلغة اليوم بين عدالة التوزيع وبين وفرة الانتاج، القرآن يؤكد ان المجتمع الذي تسوده العدالة في التوزيع، هذه العدالة في التوزيع التي عبر عنها القرآن تارة بأنه ﴿لو استقاموا على الطريقةِ لأسقيناهُمْ ماءً غدقاً﴾ واخرى بانه ﴿لو أنّ اهل القُرى آمنوا واتَّقوا﴾ واخرى بأنه ﴿لو أنَّهم اقاموا التَّوراة والانجيلَ﴾، لأن شريعة السماء نزلت من اجل تقرير عدالة التوزيع، من اجل انشاء علاقات التوزيع على اسس عادلة، يقول لو انهم طبقوا عدالة التوزيع، اذن لما وقعوا في ضيق من ناحية الثروة المنتجة، لما وقعوا في فقر من هذه الناحية، لازداد الثراء، لازداد المال وازدادت الخيرات والبركات. لكنهم تخيلوا ان عدالة التوزيع تقتضي الفقر، تقتضي التقسيم

---

١ ـ سورة الاعراف، الآية ٩٦.

٢ ـ سورة الجن، الآية ١٦.

٣ ـ سورة الزخرف، الآية ٢٢.

وبالتالي تقتضي فقر الناس، بينما الحقيقة السنة التاريخية تؤكد عكس ذلك، تؤكد بأن تطبيق شريعة السماء وتجسيد احكامها في علاقات التوزيع تؤدي دائماً وباستمرار الى وفرة الانتاج والى زيادة الثروة، الى ان يفتح على الناس بركات السماء والارض.

اذن هذه ايضاً سنة من سنن التاريخ.

وهناك آيات اخرى اكدت وحثت على الاستقراء والنظر والتدبر في الحوادث التاريخية من اجل تكوين نظرة استقرائية، من اجل الخروج بنواميس وسنن كونية للساحة التاريخية.

﴿افلمْ يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبةُ الّذينَ كانوا من قبلِهِم دمَّرَ الله عليهم وللكافرين امثالها﴾[1].

﴿افلم يسيروا في الارضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الَّذينَ من قبلِهِمْ﴾[2].

﴿فكأيّن من قريةٍ اهلكناها وهي ظالمةٌ فهي خاويةٌ على عروشها وبئر معطّلةٍ وقصر مشيدٍ، أفلم يسيروا في الارض فتكون لهُم قلوبٌ يعقلونَ بها أوْ آذانٌ يسمعونَ بها فانَّها لا تعمى الابصارُ ولكن تعمى القُلوبُ التي في الصّدور﴾[3].

﴿وكَم أهلكنا قَبلَهم من قَرنٍ هم أشدُّ مِنهُم بطشاً فنقَّبوا في البلاد هل مِنْ

---

١ ـ سورة محمد، الآية ١٠.

٢ ـ سورة يوسف، الآية ١٠٩.

٣ ـ سورة الحج، الآية ٤٦.

محيص، انَّ في ذلك لذكرى لمن كانَ لهُ قلبٌ أو ألقى السّمعَ وهو شهيدٌ...﴾[1].

من مجموع هذه الآيات الكريمة يتبلور المفهوم القرآني الذي اوضحناه، وهو تأكيد القرآن على ان الساحة التارخية لها سنن ولها ضوابط كما يكون هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية الاخرى. وهذا المفهوم القرآني يعتبر فتحاً عظيماً للقرآن الكريم.. لأننا في حدود ما نعلم القرآن أول كتاب عرفه الانسان أكد على هذا المفهوم، وكشف عنه وأصر عليه وقاوم بكل ما لديه من وسائل الاقناع والتفهيم، قاوم النظرة العفوية أو النظرة الغيبية الاستسلامية بتفسير الاحداث، الانسان الاعتيادي كان يفسر احداث التاريخ بوصفها كومة متراكمة من الاحداث، يفسرها على اساس الصدفة تارة، وعلى اساس القضاء والقدر والاستسلام لامر الله سبحانه وتعالى، القرآن الكريم قاوم هذه النظرة العفوية وقاوم هذه النظرة الاستسلامية ونبه العقل البشري الى ان هذه الساحة لها سنن، ولها قوانين وانه لكي تستطيع ان تكون انساناً فاعلاً مؤثراً لا بد لك أن تكتشف هذه السنن، لا بد لك ان تتعرف على هذه القوانين لكي تستطيع ان تتحكم فيها وإلّا تحكمت هي فيك وانت مغمض العينين، افتح عينيك على هذه القوانين افتح عينيك على هذه السنن لكي تكون انت المتحكم لا لكي تكون هذه السنن هي المتحكمة فيك.

هذا الفتح القرآني الجليل هو الذي مهد الى تنبيه الفكر البشري بعد

---

١ ـ سورة ق، الآية ٣٦ ـ ٣٧.

ذلك بقرون الى ان تجري محاولات لفهم التاريخ فهماً علمياً، بعد نزول القرآن بثمانية قرون بدأت هذه المحاولات، بدأت على أيدي المسلمين أنفسهم، فقام ابن خلدون بمحاولة لدراسة التاريخ وكشف سننه وقوانينه، ثم بعد ذلك بأربعة قرون (على أقل تقدير) اتجه الفكر الاوربي في بدايات ما يسمى بعصر النهضة، بدأ لكي يجسد هذا المفهوم الذي ضيعه المسلمون، والذي لم يستطع المسلمون ان يتوغلوا الى اعماقه، هذا المفهوم اخذه الفكر الغربي في بدايات عصر النهضة وبدأت هناك ابحاث متنوعة ومختلفة حول فهم التاريخ وفهم سنن التاريخ، ونشأت على هذا الاساس اتجاهات مثالية ومادية ومتوسطة ومدارس متعددة، كل واحدة منها تحاول ان تحدد نواميس التاريخ.

وقد تكون المادية التاريخية اشهر هذه المدارس وأوسعها تغلغلاً واكثرها تأثيراً في التاريخ نفسه، اذن كل هذا الجهد البشري في الحقيقة هو استمرار لهذا التنبيه القرآني، ويبقى للقرآن الكريم مجده في انه طرح هذه الفكرة لاول مرة على الساحة، على ساحة المعرفة البشرية.

السنن التاريخية
في القرآن الكريم (٣)[١]

من خلال استعراضنا السابق للنصوص القرآنية الكريمة التي أوضحت فكرة السنن التاريخية وأكدت عليها، يمكننا أن نستخلص من خلال المقارنة بين تلك النصوص ثلاث حقائق أكد عليها القرآن الكريم بالنسبة الى سنن التاريخ.

الحقيقة الاولى:

هي الاطِّراد بمعنى أن السنة التاريخية مطردة ليست علاقة عشوائية وليست رابطة قائمة على أساس الصدفة والاتفاق وإنما هي علاقة ذات طابع موضوعي لا تتخلف في الحالات الاعتيادية التي تجري فيها الطبيعة والكون على السنن العامة، وكان التأكيد على طابع الاطراد في السنة تأكيدا على الطابع العلمي للقانون التاريخي، لأن القانون العلمي أهم مميز يميزه عن بقية المعادلات والفروض هو الاطِّراد والتتابع وعدم التخلف.

---

١ ـ الدرس الخامس، يوم الثلاثاء ٣/ ج ٢/ ١٣٩٩ هـ.

ومن هنا استهدف القرآن الكريم، من خلال التأكيد على طابع الاطِّراد في السنة التاريخية، استهدف أن يؤكد على الطابع العلمي لهذه السنة وأن يخلق في الانسان المسلم شعوراً واعياً على جريان أحداث التاريخ متبصراً لا عشوائياً ولا مستسلماً ولا ساذجاً.

﴿فلن تجدَ لسُنّةِ اللهِ تبديلاً..﴾[1]، **﴿ولا تجدُ لسُنَّتنا تحويلاً﴾**[2]. **﴿ولا مُبدِّلَ لكلماتِ اللهِ...﴾**[3] هذه النصوص القرآنية تقدم استعراضها، تؤكد هذه النصوص طابع الاستمرارية والاطراد أي طابع الموضوعية والعلمية للسنة التاريخية، وتستنكر هذه النصوص الشريفة كما تقدم في بعضها، أن يكون هناك تفكير أو طمع لدى جماعة من الجماعات، بأن تكون مستثناة من سنة التاريخ **﴿أمْ حسِبتُمْ أن تدخُلوا الجنَّةَ ولمَّا يأتكُم مَثَلُ الذينَ خلوا مِنْ قبلكُم مسَّتهُمُ البأساءُ والضَّرّاءُ وزُلزلوا حتّى يقولَ الرَّسولُ والّذينَ آمنوا معهُ متى نصرُ الله ألا ان نصرَ الله قريبٌ﴾**[4]، هذه الآية تستنكر على من يطمع في أن يكون حالة استثنائية من سنة التاريخ كما شرحنا في ما مضى. اذن الروح العامة للقرآن تؤكد على هذه الحقيقة الاولى وهي حقيقة الاطِّراد في السنة التاريخية الذي يعطيها الطابع العلمي من أجل تربية الانسان على ذهنية واعية علمية يتصرف في اطارها ومن خلالها مع أحداث التاريخ.

---

١ ـ سورة الاحزاب، الآية ٦٢.

٢ ـ سورة الاسراء، الآية ٧٧.

٣ ـ سورة الانعام، الآية ٣٤.

٤ ـ سورة البقرة، الآية ٢١٤.

الحقيقة الثانية:

الحقيقة الثانية التي أكدت عليها النصوص القرآنية ربانية السنة التاريخية، ان السنة التاريخية، ربانية مرتبطة بالله سبحانه وتعالى، سنة الله، كلمات الله على اختلاف التعبير، بمعنى أن كل قانون من قوانين التاريخ، فهو كلمة من الله سبحانه وتعالى، وهو قرار رباني، هذا التأكيد من القرآن الكريم على ربانية السنة التاريخية وعلى طابعها الغيبي، يستهدف شدّ الانسان حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون بالله سبحانه وتعالى، واشعار الانسان بأن الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية والاستفادة من مختلف القوانين والسنن التي تتحكم في هذه الساحات، ليس ذلك انعزالاً عن الله سبحانه وتعالى لأن الله يمارس قدرته من خلال هذه السنن، ولأن هذه السنن والقوانين هي ارادة الله، وهي ممثلة لحكمة الله وتدبيره في الكون.

وقد يتوهم البعض أن هذا الطابع الغيبي الذي يلبسه القرآن الكريم للتاريخ وللسنن التاريخية يبعد القرآن عن التفسير العلمي الموضوعي للتاريخ ويجعله يتجه اتجاه التفسير الإلهي للتاريخ الذي مثلته مدرسة من مدارس الفكر اللاهوتي على يد عدد كبير من المفكرين المسيحيين اللاهوتيين حيث فسروا تفسيراً إلهياً قد يخلط هذا الاتجاه القرآني بذلك التفسير الإلهي الذي اتجه اليه أغسطين وغيره من المفكرين اللاهوتيين، فيقال بأن اسباغ هذا الطابع الغيبي على السنة التاريخية يحول المسألة الى مسألة غيبية وعقائدية ويخرج التاريخ عن اطاره العلمي الموضوعي، لكن

الحقيقة أن هناك فرقاً أساسياً بين الاتجاه القرآني وطريقة القرآن في ربط التاريخ بعالم الغيب وفي اسباغ الطابع الغيبي على السنة التاريخية، وبين ما يسمى بالتفسير الإلهي للتاريخ الذي تبناه اللاهوت، هناك فرق كبير بين هذين الاتجاهين وهاتين النزعتين، وحاصل هذا الفرق هو أن الاتجاه اللاهوتي، للتفسير الإلهي للتاريخ يتناول الحادثة نفسها ويربط هذه الحادثة بالله سبحانه وتعالى قاطعاً صلتها وروابطها مع بقية الحوادث، فهو يطرح الصلة مع الله بديلاً عن صلة الحادثة مع بقية الحوادث، بديلاً عن العلاقات والارتباطات التي تزخر بها الساحة التاريخية والتي تمثل السنن والقوانين الموضوعية لهذه الساحة، بينما القرآن الكريم لا يسبغ الطابع الغيبي على الحادثة بالذات، لا ينتزع الحادثة التاريخية من سياقها ليربطها مباشرة بالسماء، لا يطرح صلة الحادثة بالسماء كبديل عن أوجه الانطباق والعلاقات والاسباب والمسببات على هذه الساحة التاريخية بل إنه يربط السنة التاريخية بالله، يربط اوجه العلاقات والارتباطات بالله، فهو يقرر أولا ويؤمن بوجود روابط وعلاقات بين الحوادث التاريخية، إلّا أن هذه الروابط والعلاقات بين الحوادث التاريخية هي في الحقيقة تعبير عن حكمة الله سبحانه وتعالى وحسن تقديره وبنائه التكويني للساحة التاريخية.

إذا أردنا أن نستعين بمثال لتوضيح الفرق بين هذين الاتجاهين من الظواهر الطبيعية، نستطيع أن نستخدم هذا المثال: قد يأتي انسان فيفسر ظاهرة المطر التي هي ظاهرة طبيعية فيقول بأن المطر نزل بارادة من الله سبحانه وتعالى ويجعل هذه الارادة بديلاً عن الأسباب الطبيعية التي نجم

عنها نزول المطر، فكأن المطر حادثة لا علاقة لها ولا نسب لها، وانما حادثة مفردة ترتبط مباشرة بالله سبحانه وتعالى بمعزل عن تيار الحوادث، هذا النوع من الكلام يتعارض مع التفسير العلمي لظاهرة المطر، لكن اذا جاء شخص وقال بأن الظاهرة، ظاهرة المطر لها أسبابها وعلاقاتها وانها مرتبطة بالدورة الطبيعية للماء مثلاً، الماء يتبخر فيتحول الى غاز، والغاز يتصاعد سحاباً والسحاب يتحول بالتدريج الى سائل نتيجة انخفاض الحرارة فينزل المطر، إلّا أن هذا التسلسل السببي المتقن، هذه العلاقات المتشابكة بين هذه الظواهر الطبيعية هي تعبير عن حكمة الله وتدبيره وحسن رعايته، فمثل هذا الكلام لا يتعارض مع الطابع العلمي والتفسير الموضوعي لظاهرة المطر، لأننا ربطنا هنا السنة بالله سبحانه وتعالى لا الحادثة مع عزلها عن بقية الحوادث وقطع ارتباطها مع مؤثراتها وأسبابها.

اذن القرآن الكريم حينما يسبغ الطابع الرباني على السنة التاريخية لا يريد أن يتجه اتجاه التفسير الإلهي في التاريخ، ولكنه يريد أن يؤكد أن هذه السنن ليست هي خارجة ومن وراء قدرة الله سبحانه وتعالى وانما هي تعبير وتجسيد وتحقيق لقدرة الله، فهي كلماته وهي سننه وارادته وحكمته في الكون لكي يبقى الانسان دائماً مشدوداً الى الله، لكي تبقى الصلة الوثيقة بين العلم والايمان، فهو في نفس الوقت الذي نظر فيه الى هذه السنن نظرة علمية، ينظر ايضاً اليها نظرة ايمانية.

وقد بلغ القرآن الكريم في حرصه على تأكيد الطابع الموضوعي للسنن التاريخية وعدم جعلها مرتبطة بالصدف، ان نفس العمليات الغيبية أناطها

في كثير من الحالات بالسنة التاريخية نفسها ايضاً، عملية الامداد الإلهي بالنصر، الامداد الإلهي الغيبي الذي يساهم في كسب النصر، هذا الامداد جعله القرآن الكريم مشروطاً بالسنة التاريخية، مرتبطاً بظروفها غير منفك عنها، وهذه الروح أبعد ما تكون عن أن تكون روحاً تفسر التاريخ على أساس الغيب وانما هي روح تفسر التاريخ على أساس المنطق والعقل والعلم وحتى ذاك الامداد الإلهي الذي يساهم بالنصر، ذاك الامداد ايضاً ربط بالسنة التاريخية.

قرأنا في ما سبق صيغة من صيغ السنن التاريخية للنصر حينما قرأنا قوله سبحانه وتعالى: ﴿أم حسبتُم أن تدخُلوا الجنَّةَ ولمّا يأتِكُمْ مثلُ الّذينَ خلوا من قبلكُمْ مسّتهُمُ البأساءُ والضراءُ وزلزلوا حتى يقولَ الرَّسولُ والّذينَ آمنوا معه متى نصرُ اللهِ﴾[1].

الآن تعالوا نقرأ الآيات التي تتحدث عن الامداد الإلهي الغيبي لنلاحظ كيف ان هذه الآيات ربطت هذا الامداد الإلهي الغيبي بتلك السنة نفسها ايضاً إذ تقولُ للمؤمنينَ:

﴿ألن يكفيكُم أنْ يُمدَّكُم ربُّكُم بثلاثةِ آلاف من الملائكةِ مُنزلَينَ بلى إن تصبروا وتتَّقوا ويأتوكم مِن فورهِم هذا يُمددْكُم ربُّكُمْ بخمسةِ آلافٍ من الملائكةِ مُسوِّمينَ وما جعلَهُ الله إلّا بشرىٰ ولتطمئنَّ قُلُوبكمْ به وما النصرُ إلّا من عند اللهِ العزيز الحكيم﴾[2].

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢١٤.

٢ ـ سورة آل عمران، الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦.

هناك إمداد إلهي غيبي ولكنه شرط بسنة التاريخ، شرط بقوله: ﴿بلى إن تصبروا وتتّقوا﴾ اجملت هنا شروط التاريخ التي فصلت في الآيات الأخرى، اذن هذا الإمداد الغيبي ايضاً مرتبط بسنة التاريخ.

اذن فمن الواضح أن الطابع الرباني الذي يسبغه القرآن الكريم ليس بديلاً عن التفسير الموضوعي وانما هو ربط لهذا التفسير الموضوعي بالله سبحانه وتعالى من أجل اكمال اتجاه الاسلام نحو التوحيد بين العلم والايمان في تربية الانسان المسلم.

الحقيقة الثالثة:

والحقيقة الثالثة التي أكد عليها القرآن الكريم من خلال النصوص المتقدمة هي حقيقة اختيار الانسان وارادة الانسان. والتأكيد على هذه الحقيقة في مجال استعراض سنن التاريخ مهم جداً اذ سوف يأتي إن شاء الله تعالى بعد محاضرتين ان البحث في سنن التاريخ خلق وهماً، وحاصل هذا الوهم الذي خلقه هذا البحث عند كثير من المفكرين أن هناك تعارضاً وتناقضاً بين حرية الانسان واختياره وبين سنن التاريخ، فإما أن نقول بأن للتاريخ سننه وقوانينه وبهذا نتنازل عن ارادة الانسان واختياره وعن حريته، واما أن نسلّم بأن الانسان كائن حر مريد مختار، وبهذا يجب أن نلغي سنن التاريخ وقوانينه ونقول بأن هذه الساحة قد أعفيت من القوانين التي لم تعف منها بقية الساحات الكونية.

هذا الوهم وهم التعارض والتناقض بين فكرة السنة التاريخية أو القانون التاريخي، وبين فكرة اختيار الانسان وحريته، هذا الوهم كان من

الضروري للقرآن الكريم أن يزيحه وهو يعالج هذه النقطة بالذات.

ومن هنا أكد سبحانه وتعالى على أن المحور في تسلسل الأحداث والقضايا انما هو ارادة الانسان، وسوف أتناول إن شاء الله تعالى بعد محاضرتين الطريقة الفنية في كيفية التوفيق بين سنن التاريخ وارادة الانسان، وكيف استطاع القرآن الكريم أن يجمع بين هذين الأمرين من خلال فحص للصيغ التي يمكن في اطارها صياغة السنة التاريخية، سوف أتكلم عن ذلك بعد محاضرتين، لكن يكفي الآن أن نستمع إلى قوله تعالى:

﴿إنَّ اللهَ لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغيّروا ما بأنْفُسِهِم﴾[1].

﴿وأن لو استقاموا على الطَّريقة لأسقيناهُمْ ماءً غَدَقاً﴾[2].

﴿.. وتلكَ القُرى أهلكناهُم لما ظَلَموا وجعلنا لمهلِكِهم موعداً﴾[3].

انظروا كيف أن السنن التاريخية لا تجري من فوق رأس الانسان بل تجري من تحت يده، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماءً غدقاً، اذن هناك مواقف ايجابية للانسان تمثل حريته واختياره وتصميمه وهذه المواقف تستتبع ضمن علاقات السنن التاريخية، تستتبع جزاءاتها المناسبة، تستتبع معلولاتها المناسبة. اذن فاختيار الانسان له موضعه الرئيسي في الساحة التاريخية، وذات طابع انساني لأنها لا تفصل الانسان عن دوره الايجابي ولا تعطل فيه

---

١ ـ سورة الرعد، الآية ١١.

٢ ـ سورة الجن، الآية ١٦.

٣ ـ سورة الكهف، الآية ٥٩.

ارادته وحريته واختياره، وانما تؤكد أكثر فأكثر مسؤوليته على الساحة التاريخية.

الآن بعد استعراضنا الخصائص الثلاث التي تتميز بها السنن التاريخية في القرآن الكريم نواجه هذا السؤال: ما هو ميدان هذه السنن التاريخية؟

كنا حتى الآن نعبر ونقول بأن هذه السنن تجري على الساحة التاريخية، لكن، هل أن الساحة التاريخية بامتدادها هي ميدان للسنن التاريخية أو أن ميدان السنن التاريخية يمثل جزءاً من الساحة التاريخية بمعنى أن الميدان الذي يخضع للسنن التاريخية بوصفها قوانين ذات طابع نوعي مختلف عن القوانين الأخرى الفيزيائية والفسلجية والبيولوجية والفلكية، هذا الميدان الذي يخضع لقوانين ذات طابع نوعي مختلف، هذا الميدان هل تتسع له الساحة التاريخية؟ هل يستوعب كل الساحة التاريخية، أو يعبر عن جزء من الساحة التاريخية؟

اذن نستخلص مما سبق أن السنن التاريخية، ان السنن القرآنية في التاريخ ذات طابع علمي، لأنها تتميز بالاطراد الذي يميز القانون العلمي، وذات طابع رباني لأنها تمثل حكمة الله وحسن تدبيره.

لكن قبل هذا يجب أن نعرف ماذا نقصد بالساحة التاريخية؟ الساحة التاريخية عبارة عن الساحة التي تحوي تلك الحوادث والقضايا التي يهتم بها المؤرخون، المؤرخون أصحاب التواريخ يهتمون بمجموعة من الحوادث والقضايا يسجلونها في كتبهم، والساحة التي تزخر بتلك الحوادث التي يهتم بها المؤرخون ويسجلونها هي الساحة التاريخية، فالسؤال هنا اذن هو

هكذا: هل أن كل هذه الحوادث والقضايا التي يربطها المؤرخون تدخل في نطاق مهمتهم التاريخية والتسجيلية، هل كلها محكومة بالسنن التاريخية، بسنن التاريخ ذات الطابع النوعي المتميز عن سنن بقية حدود الكون والطبيعة، أو أن جزءاً معيناً من هذه الحوادث والقضايا هو الذي تحكمه سنن التاريخ؟

الصحيح أن جزءاً معيناً من هذه الحوادث والقضايا هو الذي تحكمه سنن التاريخ، هناك حوادث لا تنطبق عليها سنن التاريخ بل تنطبق عليها القوانين الفيزيائية أو الفسلجية أو قوانين الحياة أو أي قوانين أخرى لمختلف الساحات الكونية الاخرى.

مثلاً: موت أبي طالب، موت خديجة في سنة معينة، حادثة تاريخية مهمة تدخل في نطاق ضبط المؤرخين وأكثر من هذا هي حادثة ذات بعد في التاريخ ترتبت عليها آثار كثيرة في التاريخ ولكنها لا يحكمها سنّة تاريخية، تحكمها قوانين فسلجية، تحكمها قوانين الحياة التي فرضت أن يموت أبو طالب (رضوان الله عليه) وأن تموت خديجة عليها السلام في ذلك الوقت المحدد، هذه الحادثة تدخل في نطاق صلاحيات المؤرخين، ولكن الذي يتحكم في هذه الحادثة هي قوانين فسلجة جسم أبي طالب وجسم خديجة، قوانين الحياة التي تفرض المرض والشيخوخة ضمن شروط معينة وظروف معينة. حياة عثمان بن عفان، طول عمر الخليفة الثالث هذا حادثة تاريخية، الخليفة الثالث ناهز الثمانين، طبعاً هذه الحادثة التاريخية كان لها أثر عظيم في تاريخ الاسلام، لو قدّر لهذا الخليفة أن يموت موتاً طبيعياً وفقاً لقوانينه الفسلجية قبل يوم الثورة كان من الممكن أن تتغير كثير من

معالم التاريخ، كان من المحتمل أن يأتي الامام أمير المؤمنين الى الخلافة بدون تناقضات وبدون ضجيج وبدون خلاف، لكن قوانين فسلجة جسم عثمان بن عفان اقتضت أن يمتد به العمر الى أن يقتل من قبل الثائرين عليه من المسلمين، هذه حادثة تاريخية، أعني أنها تدخل في اهتمامات المؤرخين ولها بُعد تاريخي ايضاً لعبت دوراً سلباً أو ايجاباً في تكـييف الأحـداث التاريخية الاخرى، ولكنها لا تتحكم فيها سنن التاريخ، ان الذي يتحكم في ذلك قوانين بنية جسم عثمان بن عفان، قوانين الحياة وقوانين جسم الانسان التي أعطت لعثمان بن عفان عمراً طبيعياً ناهز الثمانين. مواقف عثمان بن عفان تصرفاته الاجتماعية تدخل في نطاق سنن التاريخ، ولكن طول عمر عثمان ابن عـفان مسألة أخـرى، مسألة حـياتية أو مسألة فسـلجية أو مسألة فيزيائية وليست مسألة تتحكم فيها سنن التاريخ.

اذن سنن التاريخ لا تتحكم على كل الساحة التاريخية، لا تتحكم على كل القضايا التي يدرجها الطبري في تاريخه بل على ميدان معين من هذه الساحات يأتي الحديث إن شاء الله عنها.

السنن التاريخية

في القرآن الكريم (٤)[١]

قلنا إن الساحة التاريخية، ساحة اهتمامات المؤرخين لا تستوعبها سنن التاريخ لأن هذه الساحة تشتمل على ظواهر كونية وطبيعية وفيزيائية وحياتية وفسلجية ايضاً. هذه الظواهر تحكمها قوانينها النوعية على الرغم من أن بعض هذه الظواهر ذات أهمية بالناظور التاريخي، من منظار المؤرخين تعتبر هذه حوادث ذات أهمية، لها بُعد زمني في امتداد وتيار الحوادث التاريخية ولكنها مع هذا لا تحكمها سنن التاريخ بل تحكمها سننها الخاصة. سنن التاريخ تحكم ميداناً معيناً من الساحة التاريخية، هذا الميدان يشتمل على ظواهر متميزة تميزاً نوعياً عن سائر الظواهر الكونية والطبيعية وباعتبار هذا التميز النوعي استحقت سنناً متميزة ايضاً تميزاً نوعياً عن سنن بقية الساحات الكونية.

المميز العام للظواهر التي تدخل في نطاق سنن التاريخ هو أن هذه الظواهر تحمل علاقة جديدة لم تكن موجودة في سائر الظواهر الأخرى

---

١ ـ الدرس السادس، يوم الأربعاء ٤/ ج ٢/ ١٣٩٩ هـ.

الكونية والطبيعية والبشرية. الظواهر الكونية والطبيعية كلها تحمل علاقة ظاهرة بسبب، مسبَّب بسبب، نتيجة بمقدمات، هذه العلاقة موجودة في كل الظواهر الكونية والطبيعية، الغليان ظاهرة طبيعية مرتبطة بظروف معينة، بدرجة حرارة معينة، بدرجة معينة من قرب هذا الماء من النار، هذا الارتباط ارتباط المسبب بالسبب، العلاقة هنا علاقة السببية، علاقة الحاضر بالماضي، بالظروف المسبقة المنجزة، لكن هناك ظواهر على الساحة التاريخية تحمل علاقة من نمط آخر وهي علاقة ظاهرة بهدف، علاقة نشاط بغاية أو ما يسميه الفلاسفة بالعلة الغائية، تمييزاً عن العلة الفاعلية، هذه العلاقة علاقة جديدة متميزة، غليان الماء بالحرارة، يحمل علاقة مع سببه، مع ماضيه، لكن لا يحمل علاقة مع غاية ومع هدف ما لم يتحول الى فعل انساني والى جهد بشري، بينما العمل الانساني الهادف يحتوي على علاقة لا فقط مع السبب، لا فقط مع الماضي، بل مع الغاية التي هي غير موجودة حين انجاز هذا العمل، وانما يترقب وجودها. أي العلاقة هنا علاقة مع المستقبل لا مع الماضي، الغاية دائماً تمثل المستقبل بالنسبة الى العمل، بينما السبب يمثل الماضي بالنسبة الى هذا العمل.

فالعلاقة التي يتميز بها العمل التاريخي، العمل الذي تحكمه سنن التاريخ هو انه عمل هادف، عمل يرتبط بعلة غائية سواءً كانت هذه الغاية صالحة أو طالحة، نظيفة أو غير نظيفة، على أي حال هذا يعتبر عملاً هادفاً، يعتبر نشاطاً تاريخياً، يدخل في نطاق سنن التاريخ، على هذا الأساس وهذه الغايات التي يرتبط بها هذا العمل الهادف المسؤول، هذه الغايات حيث انها مستقبلية بالنسبة الى العمل، فهي تؤثر من خلال وجودها الذهني في

العامل لا محالة، لأنها بوجودها الخارجي، بوجودها الواقعي، طموح وتطلع الى المستقبل، ليست موجودة وجوداً حقيقياً وانما تؤثر من خلال وجودها الذهني في الفاعل.

اذن فالمستقبل أو الهدف الذي يشكل الغاية للنشاط التاريخي يؤثر في تحريك هذا النشاط وفي بلورة هذا النشاط من خلال الوجود الذهني أي من خلال الفكر الذي يتمثل فيه الوجود الذهني للغاية ضمن شروط ومواصفات، حينئذ يؤثر في ايجاد هذا النشاط، اذن حصلنا الآن على مميز نوعي للعمل التاريخي، لظاهرة على الساحة التاريخية، هذا المميز غير موجود بالنسبة الى سائر الظواهر الأخرى على ساحات الطبيعة المختلفة، هذا المميز ظهور علاقة فعل بغاية، نشاط بهدف بالتعبير بالتفسير الفلسفي، ظهور دور العلة الغائية، كون هذا الفعل متطلعاً الى المستقبل، كون المستقبل محركاً لهذا الفعل من خلال الوجود الذهني الذي يرسم للفاعل غايته أي من خلال الفكر، اذن هذا هو في الحقيقة دائرة السنن النوعية للتاريخ. السنن النوعية للتاريخ موضوعها ذلك الجزء من الساحة التاريخية الذي يمثل عملاً له غاية، عملاً يحمل علاقة اضافية الى العلاقات الموجودة في الظواهر الطبيعية وهي العلاقة بالغاية والهدف، بالعلة الغائية.

لكن ينبغي هنا ايضاً انه ليس كل عمل له غاية فهو عمل تاريخي، هو عمل تجري عليه سنن التاريخ بل يوجد بُعد ثالث لابد أن يتوفر لهذا العمل لكي يكون عملاً تاريخياً أي عملاً تحكمه سنن التاريخ. البعد الأول كان هو «السبب» والبعد الثاني كان هو الغاية «الهدف».

لابد من بُعد ثالث لكي يكون هذا العمل داخلاً في نطاق سنن التاريخ،

هذا البعد الثالث هو أن يكون لهذا العمل أرضية تتجاوز ذات العامل، أن تكون أرضية العمل هي عبارة عن المجتمع، العمل الذي يخلق موجا، هذا الموج يتعدى الفاعل نفسه، ويكون أرضيته الجماعة التي يكون هذا الفرد جزءا منها، طبعاً الأمواج على اختلاف درجاتها هناك موج محدود، هناك موج كبير. لكن العمل لا يكون عملاً تاريخياً إلّا اذا كان له موج يتعدى حدود العامل الفردي، قد يأكل الفرد اذا جاع، قد يشرب اذا عطش، قد ينام اذا أحس بحاجته الى النوم، لكن هذه الاعمال على الرغم من انها أعمال هادفة ايضاً، تريد أن تحقق غايات ولكنها أعمال لا يمتد موجها أكثر من العامل خلافاً لعمل يقوم به الانسان من خلال نشاط اجتماعي وعلاقات متبادلة مع أفراد جماعته. التاجر حينما يعمل عملاً تجارياً. القائد حينما يعمل عملاً حربياً. السياسي حينما يمارس عملاً سياسياً. المفكر حينما يتبنى وجهة نظر في الكون والحياة. هذه الأعمال لها موج يتعدى شخص العامل، هذا الموج يتخذ من المجتمع أرضية له، ويمكننا ايضاً أن نستعين بمصطلحات الفلاسفة فنقول: المجتمع يشكل علة مادية لهذا العمل، نتذكر من مصطلحات الفلاسفة التمييز الأرسطي بين العلة الفاعلية والعلة الغائية والعلة المادية، هنا نستعين بهذه المصطلحات لتوضيح الفكرة. يعني المجتمع يشكل علة مادية لهذا العمل، أرضية العمل، في حالة من هذا القبيل يعتبر هذا العمل عملاً تاريخياً، يعتبر عملاً للأمة وللمجتمع وان كان الفاعل المباشر في جملة من الأحيان لا يكون إلّا فرد واحد أو عدد من الأفراد ولكن باعتبار الموج يعتبر عمل المجتمع، اذن العمل التاريخي الذي تحكمه سنن التاريخ هو العمل الذي يكون حاملاً لعلاقة مع هدف وغاية، ويكون في نفس الوقت ذا أرضية أوسع من حدود الفرد، ذا موج يتخذ من المجتمع

علة مادية له وبهذا يكون عمل المجتمع.

وفي القرآن الكريم نجد تمييزاً بين عمل الفرد وعمل المجتمع ونلاحظ في القرآن الكريم انه من خلال استعراضه للكتب الغيبية الاحصائية تحدث القرآن عن كتاب للفرد وتحدث عن كتاب للامة، عن كتاب يحصي على الفرد عمله، وعن كتاب يحصي على الامة عملها، وهذا تمييز دقيق بين العمل الفردي الذي ينسب الى الفرد وبين عمل الامة، أي العمل الذي له ثلاثة ابعاد، والعمل الذي له بعدان، العمل الذي له بعدان لا يدخل إلّا في كتاب الفرد واما العمل الذي له ثلاثة ابعاد فهو يدخل في الكتابين معاً باعتبار البعدين في كتاب الفرد ويحاسب الفرد عليه وباعتبار البعد الثالث يدخل في كتاب الأمة ويعرض على الامة وتحاسب الامة على أساسه. لاحظوا قوله سبحانه وتعالى ﴿وترى كُلَّ أمَّةٍ جاثيةً كلُّ أمَّةٍ تُدْعى الى كتابها اليومَ تُجزَوْنَ ما كُنتُم تعملونَ. هذا كتابُنا ينطقُ عليكُمْ بالحقِّ انا كُنَّا نستنسخ ما كُنتُمْ تعملونَ﴾[1].

هنا القرآن الكريم يتحدث عن كتاب للامة، أمة جاثية بين يدي ربها ويقدم لها كتابها، يقدم لها سجل نشاطها وحياتها التي مارستها كأمة، هذا العمل الهادف ذو الابعاد الثلاثة يحتويه هذا الكتاب، وهذا الكتاب ـ انظروا الى العبارة ـ يقول ﴿انَّا كُنَّا نستنسِخُ ما كُنتُم تعمَلونَ﴾ هـذا الكـتاب ليس تاريخ الطبري لا يسجل الوقائع الطبيعية، الفسلجيّة، الفيزيائية إنّما يحدد ويستنسخ ما كانوا يعملون كأمة. ما كانت الامة تعمله كأنه يعني العـمل

---

١ ـ سورة الجاثية، الآية ٢٨ ـ ٢٩.

الهادف ذا الموج بحيث ينسب للامة وتكون الامة مدعوة الى كتابها. هذا العمل هو الذي يحويه هذا الكتاب. بينما في آية اخرى نلاحظ قوله سبحانه وتعالى ﴿وكُلَّ انسانٍ الزمناهُ طائرهُ في عُنقهِ ونُخرجُ لَهُ يومَ القيامةِ كتاباً يلقاهُ منشوراً، إقرأكتابك كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ حسيبا﴾[1] هنا الموقف يختلف، هنا كل انسان مرهون بكتابه، لكل انسان كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من اعماله، من حسناته وسيئاته، من هفواته وسقطاته، من صعوده ونزوله إلّا وهو محصىً في ذلك الكتاب، الكتاب الذي كتب بعلم من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض والسماء.

كل انسان قد يفكر ان بامكانه ان يخفي نقطة ضعف، ان يخفي ذنباً، ان يخفي سيئة عن جيرانه، عن قومه، عن امته، عن اولاده، قد يحاول ان يخفي حتى عن نفسه، يخدع نفسه ويُري نفسه انه لم يرتكب سيئة ولكن هذا الكتاب الحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، في ذلك اليوم يقال انت حاسب نفسك لأن هذه الاعمال التي مارستها سوف تواجهها في هذا الكتاب ان تحكم على نفسك بموازين ومقاييس الحق في يوم القيامة، في ذلك اليوم لا يمكن لأي انسان أن يخفي شيئاً عن الموقف، عن الله سبحانه وتعالى، عن نفسه.

هذا كتاب الفرد وذاك كتاب الامة. هناك كتاب لأُمّة جاثية بين يدي ربها، وهنا لكل فرد كتاب. هذا التمييز النوعي القرآني بين كتاب الامة وكتاب الفرد هو تعبير آخر عما قلناه من ان العمل التاريخي هو ذاك العمل

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ١٣.

الذي يتمثل في كتاب الامة. العمل الذي له ابعاد ثلاثة. بل ان الذي يستظهر ويلاحظ من عدد آخر من الآيات القرآنية الكريمة انه ليس فقط يوجد كتاب للفرد ويوجد كتاب للامة بل يوجد إحضار للفرد ويوجد احضار للامة، هناك احضاران بين يدي الله سبحانه وتعالى، الاحضار الفردي يأتي فيه كل انسان فرداً فرداً، لا يملك ناصراً ولا معيناً، لا يملك شيئاً يستعين به في ذلك الموقف إلّا العمل الصالح والقلب السليم والايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، هذا هو الاحضار الفردي. قال الله تعالى: ﴿انْ كُلُّ مَنْ في السمٰواتِ والأرض إلّا آتي الرَّحمن عَبداً، لَقَدْ احصاهُم وعدَّهُم عدّاً وكُلُّهم آتيه يومَ القيامةِ فرداً﴾[1] هذا الاحضار هو احضار فردي بين يدي الله تعالى.

وهناك احضار آخر، احضار للفرد في وسط الجماعة، احضار للامة بين يدي الله سبحانه وتعالى، كما يوجد هناك سجلان، كذلك يوجد احضاران كما تقدم، ترى كل امة جاثية كل امة تدعى الى كتابها، ذاك احضار للجماعة، والمستأنس به من سياق الآيات الكريمة ان هذا الاحضار الثاني يكون من اجل اعادة العلاقات الى نصابها الحق، العلاقات من داخل كل امة قد تكون غير قائمة على اساس الحق، قد يكون الانسان المستضعف فيها جديراً بأن يكون في اعلى الامة، هذه الامة تعاد فيها العلاقات الى نصابها الحق. هذا هو الشيء الذي سماه القرآن الكريم بيوم التغابن، كيف يحصل التغابن؟.. يحصل التغابن عن طريق اجتماع المجموعة ثم كل انسان كان مغبوناً في موقعه في الامة، في وجوده في الامة، بقدر ما كان مغبوناً في

---

١ ـ سورة مريم، الآيات ٩٣ ـ ٩٥.

موقعه في الامة يأخذ حقه، يأخذ حقه يوم لا كلمة إلّا للحق:

اسمعوا قوله تعالى ﴿يومَ يجمعُكُمْ ليومِ الجمعِ ذلك يومُ التَّغابُن﴾[1]. اذن فهناك سجلان: هناك سجل لعمل الفرد، وهناك سجل لعمل الامة، وعمل الامة هو عبارة عما قلناه من العمل الذي يكون له ثلاثة ابعاد، بعد من ناحية العامل ما يسميه ارسطو بـ «العلة الفاعلية»، بعد من ناحية الهدف ما يسميه ارسطو بـ «العلة الغائية»، بعد من ناحية الارضية وامتداد الموج ما يسمونه بـ «العلة المادية». هذا العمل ذو الابعاد الثلاثة هو موضوع سنن التاريخ، هذا هو عمل المجتمع.

لكن لا ينبغي ان يوهم ذلك ما توهمه عدد من المفكرين الفلاسفة الاوروبيين من ان المجتمع كائن عملاق له وجود وحدوي عضوي متميز عن سائر الافراد وكل فرد فرد ليس إلّا بمثابة الخلية في هذا العملاق الكبير، هكذا تصور هيجل مثلاً وجملة من الفلاسفة الاوروبيين، تصوروا عمل المجتمع بهذا النحو، ارادوا أن يميزوا بين عمل المجتمع وعمل الفرد فقالوا بأنه يوجد عندنا كائن عضوي واحد عملاق، هذا الكائن الواحد هو في الحقيقة يلف في احشائه كل الافراد، تندمج في كيانه كل الافراد، كل فرد يشكل خلية في هذا العملاق الواحد، وهو يتخذ من كل فرد نافذة على الواقع على العالم بقدر ما يمكن ان يجسد في هذا الفرد من قابلياته هو، ومن ابداعه هو، اذن كل قابلية وكل ابداع، وكل فكرة هو قابلية ذلك العملاق وابداع ذلك العملاق وفكر ذلك العملاق الطاغية، وكل فرد انما هو تعبير

---

١ ـ سورة التغابن، الآية ٩.

عن نافذة من النوافذ التي يعبر عنها ذلك العملاق الهيجلي.

هذا التصور اعتقد به جملة من الفلاسفة الاوروبيين تمييزاً لعمل المجتمع عن عمل الفرد إلّا ان هذا التصور ليس صحيحاً، ولسنا بحاجة اليه، الى الاغراق في الخيال الى هذه الدرجة لكي ننحت هذا العملاق الاسطوري من هؤلاء الافراد، ليس عندنا إلّا الافراد إلّا زيد وبكر وخالد، ليس عندنا ذلك العملاق المستتر من ورائهم، طبعاً مناقشة هيجل من الزاوية الفلسفية يخرج من حدود هذا البحث، متروك الى بحث آخر لأن هذا التفسير الهيجلي للمجتمع مرتبط بحسب الحقيقة بكامل الهيكل النظري لفلسفته، إلّا ان الشيء الذي نريد أن نعرفه، نعرف موقع اقدامنا من هذا التصور، هذا التصور ليس صحيحاً، نحن لسنا بحاجة الى مثل هذا الافتراض الاسطوري، لكي نميز بين عمل الفرد وعمل المجتمع، التمييز بين عمل الفرد وعمل المجتمع يتم من خلال ما اوضحناه من البعد الثالث. عمل الفرد هو العمل الذي يكون له بعدان فان اكتسب بعداً ثالثاً كان عمل المجتمع، باعتبار ان المجتمع يشكل أرضية له، يشكل علة مادية له. يدخل حينئذ في سجل كتاب الامة الجاثية بين يدي ربها. هذا هو ميزان الفرق بين العملين.

اذن الشيء الذي نستخلصه مما تقدم ان موضوع السنن التاريخية هو العمل الهادف الذي يشكل أرضية ويتخذ من المجتمع أو الأمة أرضية له على اختلاف سعة الموجة وضيق الموجة، اتساعها وضيقها هذا هو موضوع السنن التاريخية.

السنن التاريخية
في القرآن الكريم (٥)[١]

حان الأوان لكي نتعرف على الصيغ المتنوعة التي تتخذها السنة التاريخية القرآنية.

كيف يتم التعبير موضوعياً عن القانون التاريخي في القرآن الكريم؟

ما هي الاشكال التي تتخذها سنن التاريخ في مفهوم القرآن الكريم؟

هناك ثلاثة أشكال تتخذها السنة التاريخية في القرآن الكريم، لا بد من استعراضها ومقارنتها والتدقيق في أوجه الفرق بينها.

الشكل الاول للسنة التاريخية هو شكل القضية الشرطية، في هذا الشكل تتمثل السنة التاريخية في قضية شرطية تربط بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية، وتؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء، وانه متى ما تحقق الشرط تحقق الجزاء. وهذه صياغة نجدها في كثير من القوانين والسنن الطبيعية والكونية في مختلف الساحات

---

١ ـ الدرس السابع، يوم الثلاثاء ١٠/ ج ٢/ ١٣٩٩ هـ.

الاخرى.

فمثلاً: حينما نتحدث عن قانون طبيعي لغليان الماء، نتحدث بلغة القضية الشرطية، نقول بأن الماء اذا تعرض الى الحرارة وبلغت الحرارة درجة معينة مائة مثلا في مستوى معين من الضغط، حينئذ سوف يحدث الغليان، هذا قانون طبيعي يربط بين الشرط والجزاء ويؤكد ان حالة التعرض الى الحرارة، ضمن مواصفات معينة تذكر في طرف الشرط تستتبع حادثة طبيعية معينة، وهي غليان هذا الماء، تحول هذا الماء من سائل الى غاز، هذا القانون مصاغ على نهج القضية الشرطية، ومن الواضح ان هذا القانون الطبيعي لا ينبئنا شيئاً عن تحقق الشرط وعدم تحققه، لا ينبئنا هذا القانون الطبيعي عن أن الماء هل سوف يتعرض للحرارة او لا يتعرض للحرارة؟ هل ان حرارة الماء ترتفع الى الدرجة المطلوبة ضمن هذا القانون او لا ترتفع؟ هذا القانون لا يتعرض الى مدى وجود الشرط وعدم وجوده، ولا ينبئنا بشيء عن تحقق الشرط ايجاباً او سلباً، وانما ينبئنا عن ان الجزاء لا ينفك عن الشرط، متى ما وجد الشرط وجد الجزاء، فالغليان نتيجة مرتبطة موضوعياً بالشرط هذا تماماً ما ينبئنا عنه هذا القانون المصاغ بلغة القضية الشرطية.

ومثل هذه القوانين تقدم خدمة كبيرة للانسان في حياته الاعتيادية وتلعب دورا عظيماً في توجيه الانسان، لأن الانسان ضمن تعرفه على هذه القوانين يصبح بامكانه ان يتصرف بالنسبة الى الجزاء، ففي كل حالة يرى انه بحاجة الى الجزاء يُعمل هذا القانون، يوفر شروط هذا القانون، وفي كل حالة يكون الجزاء متعارضاً مع مصالحه ومشاعره يحاول الحيلولة دون

توفر شروط هذا القانون.

متى ما كان غليان الماء مقصوداً للانسان يطبق شروط هذا القانون، ومتى لم يكن مقصوداً للانسان يحاول ان لا تتطبّق شروط هذا القانون. اذن القانون الموضوع بنهج القضية الشرطية موجه عملي للانسان في حياته.

ومن هنا تتجلى حكمة الله سبحانه وتعالى في صياغة نظام الكون على مستوى القوانين وعلى مستوى الروابط المضطردة والسنن الثابتة، لأن صياغة الكون ضمن روابط مضطردة وعلاقات ثابتة هو الذي يجعل الانسان يتعرف على موضع قدميه، وعلى الوسائل التي يجب ان يسلكها في سبيل تكييف بيئته وحياته والوصول الى اشباع حاجته، لو ان الغليان في الماء كان يحدث صدفة ومن دون رابطة قانونية مضطردة مع حادثة اخرى كالحرارة، اذن لما استطاع الانسان ان يتحكم في هذه الظاهرة، ان يخلق هذه الظاهرة متى ما كانت حياته بحاجة اليها، وان يتفاداها متى ما كانت حياته بحاجة الى تفاديها، انما كان له هذه القدرة باعتبار ان هذه الظاهرة وضعت في موضع ثابت من سنن الكون وطرح على الانسان القانون الطبيعي بلغة القضية الشرطية فأصبح ينظر في نور لا في ظلام ويستطيع في ضوء هذا القانون الطبيعي ان يتصرّف.

نفس الشيء نجده في الشكل الاول من السنن التاريخية القرآنية فان عدداً كبيراً من السنن التاريخية في القرآن قد تمت صياغته على شكل القضية الشرطية التي تربط ما بين حادثتين اجتماعيتين او تاريخيتين فهي لا تتحدث عن الحادثة الاولى انها متى توجد، ومتى لا توجد، لكن تتحدث عن الحادثة الثانية بأنه متى ما وجدت الحادثة الاولى، وجدت الحادثة

الثانية.

قرأنا في ما سبق استعراضاً للآيات الكريمة التي تدل على سنن التاريخ في القرآن: جملة من تلك الآيات الكريمة مفادها هو السنة التاريخية بلغة القضية الشرطية. تتذكرون ما قرأناه سابقاً ﴿إنَّ اللهَ لا يغيّرُ ما بقومٍ حتّى يُغيّروا ما بأنفسِهم﴾[1].

هذه السنة التاريخية للقرآن والتي تقدم الكلام عنها ويأتي إن شاء الله الحديث عن شرح محتواها، هذه السنة التاريخية للقرآن بينت بلغة القضية الشرطية لأن مرجع هذا المفاد القرآني الى ان هناك علاقة بين تغييرين: بين تغيير المحتوى الداخلي للانسان وتغيير الوضع الظاهري للبشرية والانسانية، مفاد هذه العلاقة قضية شرطية، انه متى ما وجد ذاك التغيير في أنفس القوم وجد هذا التغيير في بناء القوم وكيان القوم، هذه القضية قضية شرطية بيّن القانون فيها بلغة القضية الشرطية.

﴿وأَنْ لو استقامُوا على الطَّريقة لأسقيناهُمْ ماءً غَدَقاً﴾[2].

قلنا في ما سبق ان هذه الآية الكريمة تتحدث عن سنة من سنن التاريخ، عن سنة تربط وفرة الانتاج بعدالة التوزيع، هذه السنة ايضاً هي بلغة القضية الشرطية كما هو الواضح من صياغتها النحوية ايضاً.

﴿واذا أردنا أن نُهْلِكَ قريةً أمرْنا مُترَفِيها ففسَقوا فيها فحقَّ عليها القولُ

---

١ ـ سورة الرعد، الآية ١١.

٢ ـ سورة الجن، الآية ١٦.

فدمَّرناها تدميراً﴾[1].

ايضاً سنة تاريخية بينت بلغة القضية الشرطية ربطت بين أمرين، بين تأمير الفساق والمترفين في المجتمع، وبين دمار ذلك المجتمع وانحلاله، هذا القانون التاريخي ايضاً مبين على نهج القضية الشرطية، فهو لا يبين انه متى يوجد الشرط، لكن يبين متى ما وجد هذا الشرط يوجد الجزاء، هذا هو الشكل الاول من اشكال السنة التاريخية في القرآن.

الشكل الثاني الذي تتخذه السنن التاريخية شكل القضية الفعلية الناجزة الوجودية المحققة. وهذا الشكل ايضاً نجد له امثلة وشواهد في القوانين الطبيعية والكونية. مثلاً: العالم الفلكي حينما يصدر حكماً علمياً على ضوء قوانين مسارات الفلك بأن الشمس سوف تنكسف في اليوم الفلاني أو أن القمر سوف ينخسف في اليوم الفلاني، هذا قانون علمي وقضية علمية، إلّا أنها قضية وجودية ناجزة، ليست قضية شرطية، لا يملك الانسان تجاه هذه القضية أن يغير من ظروفها وأن يعدل من شروطها، لأنها لم تبين كـلغة قضية شرطية، وانما بينت على مستوى القضية الفعلية الوجودية، الشمس سوف تنكسف، القمر سوف ينخسف، هذه قضية فعلية تنظر الى الزمان الآتي وتخبر عن وقوع هذه الحادثة على أي حال. كذلك القرارات العلمية التي تصدر عن الانواء الجوية، المطر ينهمر على المنطقة الفلانية، هذا ايضاً يعبر عن قضية فعلية وجودية لم تصغ بلغة القضية الشرطية، وانما صيغت بلغة التنجيز والتحقيق بلحاظ مكان معين وزمان معين، هذا هو الشكل

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ١٦.

الثاني من السنن التاريخية، وسوف اذكر فيما بعد إن شاء الله تعالى عند تحليل عناصر المجتمع أمثلة هذا الشكل من القرآن الكريم.

هذا الشكل من السنن التاريخية هو الذي أوحى في الفكر الاوروبي بتوهم التعارض بين فكرة سنن التاريخ وفكرة اختيار الانسان وارادته، نشأ هذا التوهم الخاطئ الذي يقول بأن فكرة سنن التاريخ لا يمكن أن تجتمع الى جانب فكرة اختيار الانسان لأن سنن التاريخ هي التي تنظم مسار الانسان وحياة الانسان اذن ماذا يبقى لإرادة الانسان؟.

هذا التوهم أدى الى أن بعض المفكرين يذهب الى ان الانسان له دور سلبي فقط حفاظاً على سنن التاريخ وعلى موضوعية هذه السنن، ضحّى باختيار الانسان من أجل الحفاظ على سنن التاريخ فقال بأن الانسان دوره دور سلبي وليس دوراً ايجابياً، يتحرك كما تتحرك الآلة وفقاً لظروفها الموضوعية، ولعله يأتي بعض التفصيل ايضاً عن هذه الفكرة.

وذهب بعض آخر في مقام التوفيق ما بين هاتين الفكرتين ولو ظاهرياً الى أن اختيار الانسان نفسه هو ايضاً يخضع لسنن التاريخ ولقوانين التاريخ، لا نضحي باختيار الانسان، لكن نقول بأن اختيار الانسان لنفسه حادثة تاريخية ايضاً، اذن هو بدوره يخضع للسنن، هذه تضحية باختيار الانسان لكن بصورة مبطنة، بصورة غير مكشوفة.

وذهب بعض آخر الى التضحية بسنن التاريخ لحساب اختيار الانسان فذهب جملة من المفكرين الاوروبيين الى أنه ما دام الانسان مختارا فلا بد من أن تستثنى الساحة التاريخية من الساحات الكونية في مقام التقنين الموضوعي، لا بد وان يقال بأنه لا سنن موضوعية للساحة التاريخية

حفاظا على ارادة الانسان وعلى اختيار الانسان.

وهذه المواقف كلها خاطئة لأنها جميعاً تقوم على ذلك الوهم الخاطئ، وهم الاعتقاد بوجود تناقض أساسي بين مقولة السنة التاريخية ومقولة الاختيار، وهذا التوهم نشأ من قصر النظر على الشكل الثاني من اشكال السنة التاريخية؛ أي قصر النظر على السنة التاريخية المصاغة بلغة القضية الفعلية الوجودية الناجزة، لو كنا نقصر النظر على هذا الشكل من سنن التاريخ ولو كنا نقول بأن هذا الشكل هو الذي يستوعب كل الساحة التاريخية لا يبقي فراغاً لذي فراغ، لكان هذا التوهم وارداً، ولكنا يمكننا إبطال هذا التوهم عن طريق الالتفات الى الشكل الاول من اشكال السنة التاريخية الذي تصاغ في السنة التاريخية بوصفها قضية شرطية، وكثيراً ما تكون هذه القضية الشرطية في شرطها معبرة عن ارادة الانسان واختيار الانسان، يعني ان اختيار الانسان يمثل محور القضية الشرطية شرط القضية الشرطية، اذن فالقضية الشرطية كالأمثلة التي ذكرناها من القرآن الكريم تتحدث عن علاقة بين الشرط والجزاء، لكن ما هو الشرط؟

الشرط: هو فعل الانسان، هو ارادة الانسان.

﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1].

التغيير هنا أسند اليهم فهو فعلهم، ابداعهم وارادتهم. اذن السنة التاريخية حينما تصاغ بلغة القضية الشرطية وحينما يحتل ابداع الانسان واختياره موضوع الشرط في هذه القضية الشرطية، في مثل هذه الحالة

---

١ ـ سورة الرعد، الآية ١١.

تصبح هذه السنة متلائمة تماما مع اختيار الانسان، بل إن السنة حينئذ تطغي اختيار الانسان، تزيده اختيارا وقدرة وتمكناً من التصرف في موقفه، كيف أن ذلك القانون الطبيعي للغليان كان يزيد من قدرة الانسان لأنه يستطيع حينئذ ان يتحكم في الغليان بعد أن عرف شروطه وظروفه، كذلك السنن التاريخية ذات الصيغ الشرطية، هي في الحقيقة ليست على حساب ارادة الانسان وليست نقيضا لاختيار الانسان بل هي مؤكدة لاختيار الانسان، توضح للانسان نتائج الاختيار لكي يستطيع أن يقتبس ما يريده من هذه النتائج، لكي يستطيع ان يتعرف على الطريق الذي يسلك به الى هذه النتيجة أو الى تلك النتيجة فيسير على ضوء وكتاب منير. هذا هو الشكل الثاني للسنة التاريخية.

الشكل الثالث للسنة التاريخية وهو شكل اهتم به القرآن الكريم اهتماما كبيراً، هو السنّة التاريخية المصاغة على صورة اتجاه طبيعي في حركة التاريخ لا على صورة قانون صارم حدي، وفرق بين الاتجاه والقانون. ولكي تتضح الفكرة في ذلك لا بد وان نطرح الفكرة الاعتيادية التي نعيشها في اذهاننا عن القانون.

القانون العلمي كما نتصوره عادة عبارة عن تلك السنة التي لا تقبل التحدي من قبل الانسان، لأنها قانون من قوانين الكون والطبيعة فلا يمكن للانسان ان يتحداها، أن ينقضها، أن يخرج عن طاعتها، يمكنه ان لا يصلي لأن وجوب الصلاة حكم تشريعي وليس قانوناً تكوينياً، يمكنه أن يشرب الخمر لأن حرمة شرب الخمر قانون تشريعي وليس قانوناً تكوينياً، لكنه لا يمكنه ان يتحدى القوانين الكونية والسنن الموضوعية، مثلاً لا يمكنه أن

يجعل الماء لا يغلي اذا توفرت شروط الغليان، لا يمكنه ان يتحدى الغليان أن يؤخر الغليان لحظة عن موعده المعين لأن هذا قانون والقانون صارم والصرامة تأبى التحدي.

هذه هي الفكرة التي نتصورها عادة عن القوانين وهي فكرة صحيحة الى حد ما، لكن ليس من الضروري ان تكون كل سنة طبيعية موضوعية على هذا الشكل بحيث تأبى التحدي ولا يمكن تحديها من قبل الانسان بهذه الطريقة، بل هناك اتجاهات موضوعية في حركة التاريخ وفي مسار الانسان إلّا ان هذه الاتجاهات لها شيء من المرونة بحيث انها تقبل التحدي ولو على شوط قصير، وان لم تقبل التحدي على شوط طويل، لكن على الشوط القصير تقبل التحدي أنت لا تستطيع أن تؤخر موعد غليان الماء لحظة، لكن تستطيع أن تجمد هذه الاتجاهات لحظات من عمر التاريخ لكن هذا لا يعني أنها ليست اتجاهات تمثل واقعا موضوعياً في حركة التاريخ، هي اتجاهات ولكنها مرنة تقبل التحدي لكنها تحطم المتحدي حينما يتحدى هذا المتحدي، تحطمه بسنن التاريخ نفسها.

ومن هنا كانت اتجاهات: هناك اشياء يمكن تحديها دون ان يتحطم المتحدي، لكن هناك اشياء يمكن ان تتحدى على شوط قصير ولكن المتحدي يتحطم على يد سنن التاريخ نفسها، هذه هي طبيعة الاتجاهات الموضوعية في حركة التاريخ. لكي أقرّب الفكرة اليكم نستطيع أن نقول بأن هناك اتجاهاً في تركيب الانسان وفي تكوين الانسان اتجاهاً موضوعياً لا تشريعياً الى اقامة العلاقات المعينة بين الذكر والانثى في مجتمع الانسان ضمن اطار من أطر النكاح والاتصال، هذا الاتجاه ليس تشريعياً ليس

تقنيناً اعتبارياً وانما هو اتجاه موضوعي اعملت العناية في سبيل تكوينه في مسار حركة الانسان، لا نستطيع أن نقول إن هذا مجرد قانون تشريعي، مجرد حكم شرعي، لا، وانما هذا اتجاه ركب في طبيعة الانسان وفي تركيب الانسان وهو الاتجاه الى الاتصال بين الذكر والانثى وادامة النوع عن طريق هذا الاتصال ضمن اطار من أطر النكاح الاجتماعي. هذه سنة لكنها سنة على مستوى الاتجاه، لا على مستوى القانون.

لماذا؟

لأن التحدي لهذه السنة لحظة أو لحظات ممكن، أمكن لقوم لوط أن يتحدوا هذه السنة فترة من الزمن بينما لم يكن بامكانهم ان يتحدوا سنة الغليان بشكل من الاشكال، لكنهم تحدوا هذه السنة، إلّا ان تحدي هذه السنة يؤدي الى أن يتحطم المتحدي، المجتمع الذي يتحدى هذه السنة يكتب بنفسه فناء نفسه لانه يتحدى ذلك عن طريق ألوان أخرى من الشذوذ التي رفضها هذا الاتجاه الموضوعي، وتلك الالوان من الشذوذ تؤدي الى فناء المجتمع والى خراب المجتمع.

ومن هنا كان هذا اتجاهاً موضوعياً يقبل التحدي على شوط قصير، لكن لا يقبل التحدي على شوط طويل لأنه سوف يحطم المتحدي بنفسه.

الاتجاه الى توزيع الميادين بين المرأة والرجل، هذا الاتجاه اتجاه موضوعي وليس اتجاهاً ناشئاً من قرار تشريعي، اتجاه ركِّب في طبيعة الرجل والمرأة، ولكن هذا الاتجاه يمكن ان يتحدى، يمكن استصدار تشريع يفرض على الرجل بأن يبقى في البيت ليتولى دور الحضانة والتربية، وان تخرج المرأة الى الخارج لكي تتولى مشاق العمل والجهد، هذا بالامكان ان

يتحقق عن طريق تشريع معين وبهذا يحصل التحدي لهذا الاتجاه. لكن هذا التحدي سوف لن يستمر لأن سنن التاريخ سوف تجيب على هذا التحدي، لاننا بهذا سوف نخسر ونجمد كل تلك القابليات التي زودت بها المرأة من قبل هذا الاتجاه لممارسة دور الحضانة والامومة، وسوف نخسر كل تلك القابليات التي زود بها الرجل من أجل ممارسة دور يتوقف على الجلد والصبر والثبات وطول النفس. تماماً، كما أن من قبيل ان تسلم بناية، تسلم نجارياتها الى حداد وحدادياتها الى نجار، يمكن ان تصنع هكذا ويمكن ان تنشأ البناية ايضاً لكن هذه البناية سوف تنهار، سوف لن يستمر هذا التحدي على شوط طويل سوف ينقطع في شوط قصير، كل اتجاه من هذا القبيل هو في الحقيقة سنة موضوعية من سنن التاريخ، ومن سنن حركة الانسان، ولكنها سنة مرنة تقبل التحدي على الشوط القصير ولكنها تجيب على هذا التحدي.

وأهم مصداق يعرضه القرآن الكريم لهذا الشكل من السنن، هذا الشكل من السنن اهم مصداق يعرضه هو الدين، القرآن الكريم يرى أن الدين نفسه سنة من سنن التاريخ، سنة موضوعية من سنن التاريخ، ليس الدين فقط تشريعاً وانما هو سنة من سنن التاريخ ولهذا يعرض الدين على شكلين: تارة يعرضه بوصفه تشريعا كما يقول علم الاصول، بوصفه ارادة تشريعية، مثلاً يقول:

﴿شَرَعَ لكُم من الدِّين ما وصّى به نُوحاً والَّذي اوحينا اليكَ وما وصَّينا به ابراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدّينَ ولا تتفرَّقوا فيه كَبُرَ على المشركين

ما تدْعُوهُم اليه﴾[1].

هنا يبين الدين كتشريع، كقرار، كأمر من الله سبحانه وتعالى، لكن في مجال آخر يبينه سنة من سنن التاريخ وقانوناً داخلاً في صميم تركيب الانسان وفطرة الانسان. قال سبحانه وتعالى:

﴿فأقِمْ وجهكَ للدّينِ حنيفاً فطرةَ اللهِ التي فطَرَ النّاسَ عليها لا تبديل لخلقِ اللهِ ذلكَ الدِّينُ القيمُ ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمون﴾[2].

هنا الدين لم يعد مجرد تشريع، مجرد قرار من أعلى وانما الدين هنا فطرة للناس، هو فطرة الله التي فطر عليها الناس ولا تبديل لخلق الله. هذا الكلام كلام موضوعي خبري لا تشريعي انشائي، لا تبديل لخلق الله، يعني كما انك لا يمكنك ان تنتزع من الانسان أي جزء من اجزائه التي تقوِّمه، كذلك لا يمكنك ان تنتزع من الانسان دينه، الدين ليس مقولة حضارية مكتسبة على مرّ التاريخ يمكن اعطاؤها ويمكن الاستغناء عنها لأنها في حالة من هذا القبيل لا تكون فطرة الله التي فطر الناس عليها ولا تكون خلق الله الذي لاتبديل له، بل تكون من المكاسب التي حصل عليها الانسان من خلال تطوراته المدنية والحضارية على مرّ التاريخ. القرآن يريد ان يقول بأن الدين ليس مقولة من هذه المقولات بالامكان اخذها وبالامكان إعطاؤها، الدين خلق **﴿فِطرةَ الله التي فَطَرَ الناس عليها لا تبديلَ لخلقِ الله﴾** هذا الكلام «لا» ليست ناهية بل نافية يعني هذا الدين لا يمكن أن ينفك عن خلق الله ما دام

---

١ ـ سورة الشورى، الآية ١٣.

٢ ـ سورة الروم، الآية ٣٠.

الانسان انساناً، فالدين يعتبر سنة لهذا الانسان.

هذه سنة ولكنها ليست سنة صارمة على مستوى قانون الغليان، سنة تقبل التحدي على الشوط القصير، كما كان بامكان تحدي سنة النكاح، سنة اللقاء الطبيعي والتزاوج الطبيعي، كما كان بالامكان تحدي ذلك عن طريق الشذوذ الجنسي، لكن على شوط قصير كذلك يمكننا ايضاً تحدّي هذه السنة على شوط قصير عن طريق الالحاد، وغمض العين عن هذه الحقيقة الكبرى، بإمكان الانسان ان يرى الشمس، أن يغمض عينه عن الشمس ويلحد ولا يرى هذه الحقيقة، ولكن هذا التحدي لا يكون إلّا على شوط قصير لأن العقاب سوف ينزل بالمتحدي، العقاب هنا ليس بمعنى العقاب الذي ينزل على من يرتكب مخالفة شرعية على يد ملائكة العذاب في السماء في يوم القيامة، ليس هو ذاك العقاب الذي ينزل على من يخالف القانون على يد الشرطي، يضربه بالعصا على رأسه، وانما العقاب هنا ينزل من سنن التاريخ نفسها تفرض العقاب على كل أمة تريد أن تبدل خلق الله سبحانه وتعالى، ولا تبديل لخلق الله:

﴿ويستَعجلونَكَ بالعذابِ ولن يُخلفَ اللهُ وعدَهُ وإنَّ يوماً عندَ ربِّكَ كألفِ سنةٍ ممّا تَعُدُّون﴾[1].

نحن نقول بأن السنن التاريخية من الشكل الثالث اذا تحداها الانسان فسوف يأخذ العقاب من السنن التاريخية، سرعان ما ينزل عليه العقاب من السنن التاريخية نفسها. كلمة سرعان هنا يجب أن تؤخذ بمعنى السرعة

---

١ ـ سورة الحج، الآية ٤٧.

التاريخية لا السرعة التي نفهمها في حياتنا الاعتيادية. وهذا ما أرادت أن تقوله هذه الآية الكريمة. هذه الآية الكريمة في المقام تتحدث عن العذاب واقعة في سياق العذاب الجماعي الذي نزل بالقرى السابقة الظالمة ثم بعد ذلك يتحدث عن استعجال الناس في أيام رسول الله ﷺ، الناس يستعجلون رسول الله ﷺ ويقولون له أين هذا العقاب؟ أين هذا العذاب؟ لماذا لا ينزل بنا نحن الآن؟ كفرنا، تحديناك، لم نؤمن بك، صممنا آذاننا عن قرآنك، لماذا لا ينزل بنا هذا العذاب؟ هنا القرآن يتحدث عن السرعة التاريخية التي تختلف عن السرعة الاعتيادية، يقول:

﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يُخلفَ الله وعدهُ﴾[1]، لأنها سنة، والسنة التاريخية ثابتة، لكن ﴿وانَّ يوماً عندَ ربِّكَ كألفِ سنةٍ ممّا تعدُّونَ﴾[2]. اليوم الواحد في سنن التاريخ عند ربك باعتبار أن سنن التاريخ هي كلمات الله كما قرأنا في ما سبق، كلمات الله سنن التاريخ. اذن في كلمات الله، في سنن الله، اليوم الواحد، المهلة القصيرة، هي ألف سنة. طبعاً في آية أخرى عبّر بخمسين الف سنة، لكن أريد بذلك أيام القيامة لا يوم الدنيا وهذا هو وجه الجمع بين الآيتين، الكلمتين. في آية أخرى قيل:

﴿تعرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه في يومٍ كان مِقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ فاصبر صبراً جميلاً إنّهم يرونه بعيداً ونراهُ قريباً يوم تكونُ السَّماء كالمُهْلِ﴾[3].

---

١ ـ سورة الحج، الآية ٤٧.

٢ ـ نفس الآية السابقة.

٣ ـ سورة المعارج، الآيات ٤ ـ ٨.

هذا ناظر الى يوم القيامة، الى يوم تكون السماء كالمهل فيوم القيامة قدر بخمسين ألف سنة، اما هنا يتكلم عن يوم توقيت نزول العذاب الجماعي وفقاً لسنن التاريخ، يقول وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون. اذن فهذا شكل ثالث من السنن التاريخية، هذا الشكل هو عبارة عن اتجاهات موضوعية في مسار التاريخ وفي حركة الانسان وفي تركيب الانسان، يمكن ان يتحدى على الشوط القصير، ولكن سنن التاريخ لا تقبل التحدي على الشوط الطويل، إلّا أن الشوط القصير والطويل هنا ليس بحسب طموحاتنا، بحسب حياتنا الاعتيادية يوم أو يومين لأن اليوم الواحد في كلمات الله وفي سنن الله كألف سنة مما نحسب.

هذا هو الشكل الثالث، الدين هو المثال الرئيسي للشكل الثالث، من أجل أن نعرف كيف ان الدين سنة من سنن التاريخ؟ ما هو دوره؟ ما هو موقعه؟ لماذا اصبح سنة من سنن التاريخ؟ ليس مجرد تشريع وانما هو سنة، يعني حاجة اساسية موضوعية حاله حال قانون الزوجية بين الذكر والانثى هو سنة موضوعية لماذا صار هكذا؟ وكيف صار هكذا؟ وما هو دوره كسنة تاريخية من سنن التاريخ؟

لكي نعرف ذلك يجب أن نأخذ المجتمع، نحلل عناصر المجتمع على ضوء القرآن الكريم لنصل الى مغزى قولنا ان الدين سنة من سنن التاريخ.

كيف نحلل عناصر المجتمع؟ نحلل عناصر المجتمع على ضوء هذه الآية الكريمة:

﴿وإذ قالَ ربُّكَ للملائكةِ إنّي جاعلٌ في الارضِ خليفةً، قالوا أتجعلُ فيها مَنْ يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماءَ ونحنُ نُسبِّحُ بحمدكَ ونُقدِّسُ لكَ قال انّي اعلمُ ما لا

تَعلمونَ﴾[1].

على ضوء هذه الآية التي تعطينا أروع وأدق وأعمق صيغة لتـحليل عناصر المجتمع سوف ندرس هذه العناصر ونقارن ما بينها لنعرف فـي النهاية أن الدين سنة التاريخ وليس مجرد حكم شرعي قد يـطاع وقـد يعصى.

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٣٠.

عناصر المجتمع

في القرآن الكريم (١)[1]

قلنا ان القرآن الكريم يقدم الدين لا بوصفه مجرد قرار تشريعي، بل يقدمه بوصفه سنة من سنن الحياة والتاريخ ومقوماً أساسياً لخلق الله ولن تجد لخلق الله تبديلاً، ولكنها سنة من الشكل الثالث. سنة تقبل التحدي على الشوط القصير، ولكن المتحدي يعاقب بسنن التاريخ نفسها. وقد أشير الى هذه الخاصية ايضاً بقوله:

﴿ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يعلَمونَ﴾ هذه العبارة التي ختمت بها الآية الكريمة:

﴿فأقِمْ وجهكَ للدِّينِ حنيفاً فطرةَ الله الَّتي فطرَ النّاسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ اللهِ ذلك الدِّين القيِّم ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ﴾[2].

هذه الجملة الأخيرة اشارة الى ان هذه السنة من الشكل الثالث اي ان

---

١ ـ الدرس الثامن، يوم الأربعاء ١١/ ج ٢/ ١٣٩٩هـ.

٢ ـ سورة الروم، الآية ٣٠.

للناس ان يتخذوا مواقف سلبية وإهمالية تجاه هذه السنة، ولكنه اهمال على الشوط القصير لا على الشوط الطويل.

قلنا بأن توضيح واقع هذه السنة القرآنية من سنن التاريخ يتطلب منا ان نحلل عناصر المجتمع، ما هي عناصر المجتمع من زاوية نظر القرآن الكريم؟ ما هي مقومات المركب الاجتماعي؟ كيف يتم التنفيذ بين هذه العناصر والمقومات؟ وضمن أي اطار؟ وأي سنن؟ هذه الاسئلة نحصل على جوابها في النص القرآني الشريف الذي تحدث عن خلق الانسان الاول:

﴿وإذ قالَ ربُّكَ للملائكةِ إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً قالوا أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماءَ ونحنُ نُسبِّحُ بحمدكَ ونُقدِّسُ لك قال إنّي أعلمُ ما لا تعلمونَ﴾[1]، حينما نستعرض هذه الآية الكريمة نجد أن الله سبحانه وتعالى ينبئ الملائكة بأنه قرر انشاء مجتمع على الارض، فما هي العناصر التي يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية التي تتحدث عن هذه الحقيقة العظيمة؟

هناك ثلاثة عناصر يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية:

أولاً ـ الانسان.

ثانياً ـ الارض أو الطبيعة على وجه عام **﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً﴾** فهناك ارض او طبيعة على وجه عام وهناك الانسان الذي جعله الله سبحانه وتعالى على الارض.

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٣٠.

ثالثاً ـ العلاقة المعنوية التي تربط الانسان بالأرض وبالطبيعة وتربط من ناحية اخرى الانسان بأخيه الانسان، هذه العلاقة المعنوية التي سمّاها القرآن الكريم بالاستخلاف، هذه هي عناصر المجتمع، الانسان والطبيعة والعلاقة المعنوية التي تربط الانسان بالطبيعة من ناحية، وتربط الانسان بأخيه الانسان من ناحية اخرى، وهي العلاقة التي سميت قرآنيا بالاستخلاف.

ونحن حينما نلاحظ المجتمعات البشرية نجد ان المجتمعات البشرية جميعاً تشترك بالعنصر الاول والعنصر الثاني، لا يوجد مجتمع بدون انسان يعيش مع أخيه الانسان، ولا يوجد مجتمع بدون ارض أو طبيعة يمارس الانسان عليها دوره الاجتماعي. وفي هذين العنصرين تتفق المجتمعات التاريخية والبشرية. واما العنصر الثالث: وهو العلاقة ففي كل مجتمع علاقة كما ذكرنا ولكن المجتمعات تختلف في طبيعة هذه العلاقة وفي كيفية صياغة هذه الطبيعة.

فالعنصر الثالث هو العنصر المرن والمتحرك من عناصر المجتمع وكل مجتمع يبني هذه العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالإنسان من جانب وبالطبيعة بالجانب الآخر، يبني العلاقة بشكل قد يتفق وقد يختلف مع طريقة بناء المجتمع الآخر لهذه العلاقة.

وهذه العلاقة التي هي العنصر الثالث، العنصر المرن والمتحرك في تركيب المجتمع لها صيغتان اساسيتان:

احداهما صيغة رباعية وقد اطلق عليها اسم «الصيغة الرباعية»

والاخرى صيغة ثلاثية.

الصيغة الرباعية: هي الصيغة التي ترتبط بموجبها الطبيعة والانسان مع الانسان، هذه اطراف ثلاثة، فالعلاقة اذا اتخذت صيغة تربط بموجبها بين هذه الاطراف الثلاثة وهي الطبيعة والانسان مع اخيه الانسان ولكن مع افتراض طرف رابع ايضاً، في هذه العلاقة فاسمي هذه الصيغة بالصيغة الرباعية، الصيغة الرباعية تربط بين هذه الأطراف الثلاثة ولكنها تفترض طرفاً رابعاً، بعداً رابعاً للعلاقة الاجتماعية، وهذا الطرف الرابع ليس داخلاً في اطار المجتمع، خارج عن اطار المجتمع، ولكن الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية تعتبر هذا الطرف الرابع مقوماً من المقومات الاساسية للعلاقة الاجتماعية على الرغم من انه خارج اطار المجتمع، وهذه الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية ذات الابعاد الاربعة هي التي طرحها القرآن الكريم تحت اسم الاستخلاف.

الاستخلاف هو العلاقة الاجتماعية من زاوية نظر القرآن الكريم والاستخلاف عند التحليل نجد انه ذو اربعة اطراف لأن الاستخلاف يفترض مستخلِفاً ايضاً. لا بد من مستخلِف ومستخلَف عليه، ومستخلَف. فهناك اضافة الى الانسان واخيه الانسان والطبيعة يوجد طرف رابع في طبيعة وتكوين علاقة الاستخلاف وهو المستخلِف اذ لا استخلاف بدون مستخلف، فالمستخلِف هو الله سبحانه وتعالى والمستخلَف هو الانسان واخوه الانسان، أي الانسانية ككل الجماعة البشرية والمستخلف عليه هو الارض وما عليها ومن عليها، فالعلاقة الاجتماعية ضمن صيغة الاستخلاف تكون ذات اطراف اربعة وهذه الصيغة ترتبط بوجهة نظر

معينة نحو الحياة والكون بوجهة نظر قائلة بأنه لا سيد ولا مالك ولا إله للكون وللحياة إلّا سبحانه وتعالى وان دور الانسان في ممارسة حياته انما هو دور الاستخلاف والاستئمان وأي علاقة تنشأ بين الانسان والطبيعة فهي في جوهرها ليست علاقة مالك بمملوك وانما هي علاقة أمين على امانة استؤمن عليها، وأي علاقة تنشأ بين الانسان واخيه الانسان مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو لذاك فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الانسان او ذاك مؤدياً لواجبه بهذه الخلافة وليست علاقة سيادة أو الوهية أو مالكية، هذه الصيغة الاجتماعية الرباعية الاطراف التي صاغها القرآن الكريم تحت اسم الاستخلاف ترتبط بوجهة النظر المعينة للحياة والكون.

في مقابلها يوجد للعلاقة الاجتماعية صيغة ثلاثية الاطراف، صيغة تربط بين الانسان والانسان والطبيعة ولكنها تقطع صلة هذه الاطراف مع الطرف الرابع، تجرد تركيب العلاقة الاجتماعية عن البعد الرابع، عن الله سبحانه وتعالى. وبهذا تتحول نظرة كل جزء الى الجزء الآخر داخل هذا التركيب وداخل هذه الصيغة.

وجدت الالوان المختلفة للملكية وللسيادة، سيادة الانسان على أخيه الانسان بأشكالها المختلفة التي استعرضها التاريخ بعد ان عطل البعد الرابع وبعد ان افترض ان البداية هي الانسان، حينئذ تنوعت على مسرح الصيغة الثلاثية اشكال الملكية واشكال السيادة، سيادة الانسان على اخيه الانسان.

وبالتدقيق في المقارنة بين الصيغتين، الصيغة الرباعية والصيغة الثلاثية

يتضح ان اضافة الطرف الرابع للصيغة الرباعية ليس مجرد اضافة عددية، ليس مجرد طرف جديد يضاف الى الاطراف الاخرى، بل ان هذه الاضافة تحدث تغييراً نوعياً في بنية العلاقة الاجتماعية وفي تركيب الاطراف الثلاثة الاخرى نفسها، من هنا ليس هذا مجرد عملية جمع ثلاثة زائد واحد، بل هذا الواحد الذي يضاف الى الثلاثة سوف يعطي للثلاثة روحاً أخرى ومفهوما آخر، سوف يحدث تغييراً اساسياً في بنية هذه العلاقة ذات الأطراف الاربعة كما رأينا، اذ يعود الانسان مع اخيه الانسان مجرد شركاء في حمل هذه الامانة والاستخلاف، وتعود الطبيعة بكل ما فيها من ثروات وبكل ما عليها ومن عليها مجرد امانة لا بد من رعاية واجبها واداء حقها.

هذا الطرف الرابع هو في الحقيقة مغير نوعي لتركيب العلاقة. اذن امامنا للعلاقة الاجتماعية صيغتان: صيغة رباعية وصيغة ثلاثية والقرآن الكريم آمن بالصيغة الرباعية كما رأينا في الآية الكريمة، الاستخلاف هو الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية لكن القرآن الكريم اكثر من أنه آمن بالصيغة الرباعية في المقام اعتبر الصيغة الرباعية سنة من سنن التاريخ، كما رأينا في الآية السابقة كيف اعتبر الدين سنة من سنن التاريخ كذلك اعتبر الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية التي هي صيغة الدين في الحياة، اعتبر هذه العلاقة بصيغتها الرباعية سنة من سنن التاريخ.

كيف؟

هذه الصيغة الرباعية عرضها القرآن الكريم على نحوين: عرضها تارة بوصفها فاعلية ربانية من زاوية دور الله سبحانه وتعالى في العطاء. وهذا

هو العـرض الذي قـرأنـاه ﴿إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً﴾ هـذه العـلاقة الرباعية معروضة في هذا النص الشريف باعتبارها عطاءً من الله، جعلاً من الله يمثل الدور الايجابي والتكريمي من رب العالمين للانسان، وعرض الصيغة الرباعية نفسها من زاوية اخرى. عرضها بوصفها وبنحو ارتباطها مع الانسان بما هي أمر يتقبله الانسان. عرضها من زاوية تقبل الانسان لهذه الخلافة وذلك في قـوله سـبحانه وتـعالى ﴿إنّا عرضنا الامانة على السَّماواتِ والارضِ والجبال فأبينَ أنْ يحملنها وأَشفقنَ منها وحَمَلها الانسانُ إنّهُ كان ظلوماً جهولاً﴾[1]. الامانة هي الوجه التقبلي للخلافة، والخلافة هي الوجه الفاعلي والعطائي للامانة، الامانة والخلافة عبارة عن الاستخلاف والاستئمان وتحمل الأعباء، عبارة عن الصيغة الربـاعية، هـذه الصـيغة الرباعية تارة نلحظها من زاوية ربطها بالفاعل وهو الله سبحانه وتـعالى، يأتي قوله ﴿إني جاعلٌ في الارضِ خليفةً﴾، واخرى نلحظها من زاوية القابل كما يقول الفلاسفة، من ناحية دور الانسان في تقبل هذه الخلافة وتحمل هذه الأمانة، يأتي قوله سبحانه وتعالى ﴿إنّا عرضنا الامانة على السَّماواتِ والارضِ والجبالِ...﴾ وهذه الامانة التي تقبلها الانسان وتحملها الإنسان عرضت على الانسان فتقبلها الإنسان بنفس هذه الآية الكـريمة، هـذه الامانة او هذه الخلافة او بالتعبير الذي قلناه هـذه العـلاقة الاجـتماعية بصيغتها الرباعية هذه لم تعرض على الانسان في هذه الآية بوصفها تكليفاً أو طلباً ليس المقصود من عرضها على الانسان هو العرض على مستوى التكليف، والطلب، وليس المقصود من تقبل الأمانة هو تقبل هذه الخلافة

---

١ ـ سورة الاحزاب، الآية ٧٢.

على مستوى الامتثال والطاعة، ليس المقصود ان يكون هكذا العرض وان يكون هكذا التقبل بقرينة ان هذا العرض كان معروضاً على الجبال ايضاً، على السماوات والارض والجبال ايضاً، فمن الواضح انه لا معنى لتكليف السماوات والجبال والارض. هذا العرض نعرف من ذلك انه عرض تكويني لا عرض تشريعي، هذا العرض معناه ان هذه العطية الربانية كانت تفتش عن الموضع القابل لها في الطبيعة، الموضع المنسجم معها بطبيعته، بفطرته، بتركيبه التاريخي والكوني، الجبال لا تنسجم مع هذه الخلافة، السماوات والارض لا تنسجم مع هذه العلاقة الاجتماعية الرباعية، الكائن الوحيد الذي بحكم تركيبه، بحكم بُنيته، بحكم فطرة الله التي قرأناها في الآية السابقة كان منسجما مع هذه العلاقة الاجتماعية ذات الاطراف الاربعة التي بها تصبح أمانة، تصبح خلافة.

اذن العرض هنا عرض تكويني والقبول هنا قبول تكويني وهو معنى سنة التاريخ، يعني ان هذه العلاقة الاجتماعية ذات الاطراف الاربعة داخلة في تكوينة الانسان وفي تركيب مسار الانسان الطبيعي والتاريخي.

ونلاحظ انه في هذه الآية الكريمة ايضاً جاءت الاشارة الى هوية هذه السنة التاريخية وانها سنة من الشكل الثالث، سنة تقبل التحدي وتقبل العصيان، ليست من تلك السنن التي لا تقبل التحدي ابداً ولو لحظة، لا.. هي سنة، هي فطرة ولكن هذه الفطرة تقبل التحدي. كيف اشار القرآن الكريم الى ذلك بعد ان وضح انها سنة من سنن التاريخ؟ قال: ﴿**وحَمَلها الانسانُ إنّه كان ظلوماً جهولاً**﴾ هذه العبارة الأخيرة (إنه كان ظلوماً

جَهولاً) تأكيد على طابع هذه السنة وان هذه السنة على الرغم من انها سنة من سنن التاريخ ولكنها تقبل التحدي، تقبل ان يقف الانسان منها موقفاً سلبياً، هذا التعبير يوازي تعبير ﴿ولكنَّ أكثرَ النّاس لا يعلمونَ﴾ في الآيـة السابقة.

اذن الآية السابقة استخلصنا منها ان الدين سنة من سنن الحياة ومن سنن التاريخ ومن هذه الآية نستخلص ان صيغة الدين للحياة التي هـي عبارة عن العلاقة الاجتماعية الرباعية، العلاقة الاجتماعية ذات الاطراف الاربعة التي يسميها القرآن بالخلافة والامانة والاستخلاف، هذه العلاقة الاجتماعية هي ايضاً بدورها سنة من سنن التاريخ بحسب مفهوم القرآن الكريم.

فالحقيقة ان الآية الاولى والآية الثانية متطابقتان تماماً في مفادهما لأنه في الآية السابقة قال ﴿فأقِمْ وجهكَ للدينِ حنيفاً فطرةَ الله التي فطرَ الناس عليها لا تبديلَ لخلقِ الله ذلك الدين القيِّم﴾[1] التعبير بالدين القيم تأكيد على أن ما هو الفطرة وما هو داخل في تكوين الانسان وتركيبه وفي مسـار تاريخه هو الدين القيم، يعني أن يكون هذا الدين قيماً على الحياة، ان يكون مهيمنا على الحياة، هذه القيمومة في الدين هي التعبير المجمل في تلك الآية عن العلاقة الاجتماعية الرباعية التي طرحت في الآيتين، في آية ﴿إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً﴾ وآية ﴿إنّا عرضنا الامانةَ على السَّماواتِ والارض﴾ اذن فالدين سنة الحياة والتاريخ والدين هو الدين القيم، والدين القيم هو العلاقة

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٣٠.

الاجتماعية الرباعية الاطراف التي يدخل فيها الله بعداً رابعاً لكي يحدث تغييراً في بنية هذه العلاقة لا لكي تكون مجرد اضافة عددية.

هذه مفاهيم القرآن الكريم مستخلصة من هذه الآيات عن هذه السنة، اما كيف؟ نريد ان نتعرف بصورة اوضح وأوسع عن هذه السنة، عن دور التاريخ كسنة، عن دور الدين، عن دور الدين القيم ودور الخلافة والامانة، عن دور العلاقة الاجتماعية ذات الاطراف الاربعة، دور الطرف الرابع، دوره كسنة من سنن التاريخ، ما هو هذا الطرف الرابع كسنة من سنن التاريخ؟، وكيف كان مقوما اساسيا لمسار الانسان على الساحة التاريخية؟ لكي نتعرف على ذلك لا بد من ان نتعرف على الركنين الثابتين في العلاقة الاجتماعية، هناك ركنان ثابتان في العلاقة الاجتماعية: احدهما الانسان واخوه الانسان والآخر الطبيعة، الكون، الارض. هذان الركنان داخلان في الصيغة الرباعية، ومن هنا نسميهما بالركنين الثابتين في العلاقة الاجتماعية لكي نعرف دور الركن الجديد، دور هذا الطرف الرابع، دور الله سبحانه وتعالى في تركيب العلاقة الاجتماعية، يجب ان نعرف مقدمة لذلك دور الركنين الثابتين.

ما هو دور الانسان في عملية التاريخ من زاوية النظرة القرآنية، من زاوية النظرة للقرآن والفهم الرباني من القرآن للتاريخ وسنن الحياة؟ ما هو دور الانسان في العلاقة الاجتماعية؟ وما هو دور الطبيعة في العلاقة الاجتماعية على ضوء تشخيص هذين الدورين وتحديد الموقفين؟ سوف يتضح حينئذ دور هذا الطرف الجديد، دور الطرف الرابع الذي تتميز به الصيغة الرباعية عن الصيغة الثلاثية، ويتضح ان هذا الطرف الرابع عنصر

ضروري بحكم سنة التاريخ وتركيب خلقة الانسان ولا بد وان يندمج مع الاطراف الاخرى لتكوين علاقة اجتماعية رباعية الاطراف.

اذن ففهم هذه السنة التاريخية يتطلب منا ان نتحدث عن دور الانسان والطبيعة في عملية التاريخ من زاوية نظر القرآن الكريم وهذا ما يأتي إن شاء الله.

عناصر المجتمع

في القرآن الكريم (٢)[1]

قلنا في ما سبق ان اكتشاف الابعاد الحقيقية لدور الدين في حركة التاريخ، والمسيرة الاجتماعية للانسان، تتوقف على تحديد وتقييم دور العنصرين او الركنين الثابتين في الصيغة، وهما الانسان والطبيعة.

الآن نتحدث عن الانسان، ودور الانسان في الحركة التاريخية من زاوية مفهوم القرآن الكريم.

من الواضح على ضوء المفاهيم التي قرأناها سابقاً أن الانسان أو المحتوى الداخلي للانسان هو الاساس لحركة التاريخ، وأننا ذكرنا ان حركة التاريخ تتميز عن كل الحركات الاخرى بأنها حركة غائية لا سببية فقط، ليست مشدودة الى سببها، الى ماضيها، بل هي مشدودة الى الغاية، لأنها حركة هادفة لها علة غائية متطلعة الى المستقبل. فالمستقبل هو المحرك لأي نشاط من النشاطات التاريخية. والمستقبل معدوم فعلاً وانما يحرك من

---

١ ـ الدرس التاسع، يوم الثلاثاء ١٧/ ج ٢/ ١٣٩٩ هـ.

خلال الوجود الذهني الذي يتمثل فيه هذا المستقبل.

اذن، الوجود الذهني هو الحافز والمحرك والمدار لحركة التاريخ، وهذا الوجود الذهني يجسد من ناحية جانباً فكرياً وهو الجانب الذي يضم تصورات الهدف، وايضاً يمثل من جانب آخر الطاقة، الارادة التي تحفز الانسان نحو هذا الهدف وتنشطه للتحرك نحو هذا الهدف. اذن هذا الوجود الذهني الذي يجسد المستقبل المحرك، هذا الوجود الذهني يعبر بجانب منه عن الفكر وفي جانب آخر منه عن الارادة، وبالامتزاج بين الفكر والارادة تتحقق فاعلية المستقبل ومحركيته للنشاط التاريخي على الساحة الاجتماعية.

وهذان الامران: الفكر والارادة هما في الحقيقة المحتوى الداخلي الشعوري للانسان، ان المحتوى الداخلي الشعوري للإنسان يتمثل في هذين الركنين الاساسيين وهما الفكر والارادة. اذن المحتوى الداخلي للانسان هو الذي يصنع هذه الغايات، ويجسد هذه الاهداف من خلال مزجه بين فكرة وارادة.

وبهذا صحّ القول بأن المحتوى الداخلي للانسان هو الاساس لحركة التاريخ، والبناء الاجتماعي العلوي بكل ما يضم من علاقات ومن انظمة ومن افكار وتفاصيل، هذا البناء العلوي في الحقيقة مرتبط بهذه القاعدة، فالمحتوى الداخلي للانسان مرتبط بهذه القاعدة ويكون تغيره وتطوره تابعاً لتغير هذه القاعدة وتطورها، فاذا تغير الاساس تغير البناء العلوي، واذا بقي الاساس ثابتاً، بقي البناء العلوي ثابتاً.

فالعلاقة بين المحتوى الداخلي للانسان والبناء الفوقي والتاريخي للمجتمع، هذه العلاقة علاقة تبعية، علاقة سبب بسبب، هذه العلاقة تمثل سنة تاريخية تقدم الكلام عنها في قوله سبحانه وتعالى ﴿إنَّ الله لا يُغيّرُ ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسِهِم﴾[1]. هذه الآية واضحة جداً في المفهوم الذي اعطيناه وهو ان المحتوى الداخلي للانسان، هو القاعدة والاساس للبناء العلوي، للحركة التاريخية، لأن الآية الكريمة تتحدث عن تغييرين: احدهما تغيير القوم ﴿إن الله لا يُغيّر ما بقومٍ﴾ يعني تغيير اوضاع القوم، شؤون القوم، الأبنية العلوية للقوم، ظواهر القوم، هذه لا تتغير حتى يتغير ما بأنفسهم. اذن التغيير الاساس هو تغيير ما بنفس القوم والتغيير التابع المترتب على ذلك هو تغيير حالة القوم، النوعية، التاريخية، الاجتماعية ومن الواضح ان المقصود من تغيير ما بالأنفس، تغيير ما بأنفس القوم، بحيث يكون المحتوى الداخلي للقوم كقوم وكأمة وكشجرة مباركة تؤتي أكلها كل حين، متغيرا، وإلّا تغير الفرد الواحد أو الفردين أو الأفراد الثلاثة لا يشكل الاساس لتغير ما بالقوم، وانما يكون تغير ما بالقوم تابعا لتغير ما بأنفسهم كقوم، كأمة، كشجرة مباركة تؤتي اكلها كل حين.

فالمحتوى النفسي والداخلي للامة كأمة لا لهذا الفرد أو لذلك الفرد هو الذي يعتبر أساساً وقاعدة للتغييرات في البناء العلوي للحركة التاريخية كلها.

والاسلام والقرآن الكريم يؤمن بأن العمليتين يجب ان تسيرا جنباً الى

---

١ ـ سورة الرعد، الآية ١١.

جنب، عملية صنع الانسان لمحتواه الداخلي وبناء الانسان لنفسه، لفكره، لارادته، لطموحاته، هذا البناء الداخلي يجب ان يسير جنباً الى جنب مع البناء الخارجي، مع بناء الابنية العلوية ولا يمكن ان يفترض انفكاك البناء الخارجي عن البناء الداخلي إلّا اذا بقي البناء الخارجي بناءً مهزوزاً متداعياً.

ولهذا سمى الاسلام عملية بناء المحتوى الداخلي اذا اتجهت اتجاهاً صالحاً سمّاها «بالجهاد الأكبر». وسمى عملية البناء الخارجي اذا اتجهت اتجاها صالحا بعملية «الجهاد الاصغر» وربط الجهاد الاصغر بالجهاد الأكبر، واعتبر ان الجهاد الاصغر اذا فصل عن الجهاد الاكبر فقد محتواه وفقد مضمونه، وفقد قدرته على التغيير الحقيقي على الساحة التاريخية والاجتماعية.

اذن هاتان العمليتان يجب ان تسيرا جنباً الى جنب. واذا انفكت احداهما عن الأخرى فقدت حقيقتها ومحتواها، وسمى الاسلام العملية الأولى، عملية بناء المحتوى الداخلي بالجهاد الأكبر تأكيداً على الصفة الأساسية للمحتوى الداخلي وتوضيحاً لهذه الحقيقة، حقيقة ان المحتوى الداخلي للانسان هو الأساس، ولهذا سمي بالجهاد الأكبر. فاذا بقي الجهاد الأصغر منفصلاً عن الجهاد الأكبر، حينئذ لا يحقق ذلك في الحقيقة أي مضمون تغييري صالح.

القرآن الكريم يعرض لحالة من حالات انفصال عملية البناء الخارجي عن عملية البناء الداخلي، قال سبحانه وتعالى ﴿ومِن النّاسِ من يُعجبُكَ قولُهُ في الحياةِ الدُّنيا ويُشهدُ اللهَ على ما في قلبهِ وهوَ ألدُّ الخصامِ، وإذا تولى

سعى في الأرضِ ليُفسدَ فيها ويُهلكَ الحرثَ والنَّسلَ واللهُ لا يُحبُّ الفسادَ﴾[1]، يريد أن يقول بأن الانسان اذا لم ينفذ بعملية التغيير الى قلبه، الى اعماق روحه، اذا لم يبن نفسه بناء صالحاً لا يمكنه ابدا أن يطرح الكلمات الصالحة. الكلمات الصالحة انما يمكن ان تتحول الى بناء صالح في المجتمع اذا نبعت عن قلب يعمر بتلك القيم التي تدل عليها تلك الكلمات، وإلّا فتبقى الكلمات مجرد الفاظ جوفاء دون ان يكون لها مضمون ومحتوى.

فمسألة القلب هي التي تعطي للكلمات معناها، للشعارات ابعادها ولعملية البناء الخارجي اهدافها ومسارها.

الى هنا عرفنا ان الاساس في حركة التاريخ هو المحتوى الداخلي للانسان، وهذا المحتوى الداخلي للانسان يشكل القاعدة. الآن نتساءل:

ما هو الأساس في هذا المحتوى الداخلي نفسه؟ ما هي نقطة البدء في بناء هذا المحتوى الداخلي للانسان؟ وما هو المحور الذي يستقطب عملية بناء المحتوى الداخلي للانسانية؟ المحور الذي يستقطب عملية البناء الداخلي للإنسانية هو المثل الاعلى.

عرفنا ان المحتوى الداخلي للانسان يجسد الغايات التي تحرك التاريخ، يجسدها من خلال وجودات ذهنية تمتزج فيها الارادة بالتفكير. وهذه الغايات التي تحرك التاريخ يحددها المثل الاعلى. فإنها جميعاً تنبثق عن وجهة نظر رئيسية الى مثل اعلى للانسان في حياته، للجماعة البشرية في

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٠٥.

حياتها. وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدد الغايات التفصيلية، وينبثق عنه هذا الهدف الجزئي وذلك الهدف الجزئي، فالغايات بنفسها محركات للتاريخ وهي بدورها نتاج لقاعدة اعمق منها في المحتوى الداخلي للانسان وهو المثل الأعلى الذي تتمحور فيه كل تلك الغايات وتعود اليـه كـل تـلك الاهداف.

فبقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشرية صالحاً وعالياً وممتداً تكون الغايات صالحة وممتدة، وبقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدوداً او منخفضاً تكون الغايات المنبثقة عنه محدودة ومنخفضة ايضاً.

اذن المثل الاعلى هو نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للجماعة البشرية، وهذا المثل الاعلى يرتبط في الحقيقة بوجهة نظر عامة الى الحياة والكون، يتحدد من قبل كل جماعة بشرية على اساس وجهة نظرها العامة نحو الحياة والكون، على ضوء ذلك تحدد مثلها الاعلى.

ومن خلال الطاقة الروحية التي تتناسب مع ذلك المثل الاعلى ومـع وجهة نظرها الى الحياة والكون تحقق ارادتها للسير نحو هذا المثل، وفي طريق هذا المثل.

اذن هذا المثل الاعلى هو في الحقيقة ايضاً يتجسد من خلال رؤيـة فكرية، ومن خلال طاقة روحية ترحف بالانسان في طريقه، وكل جماعة اختارت مثلها الاعلى، فقد اختارت في الحقيقة سبيلها وطريقها ومنعطفات هذا السبيل وهذا الطريق.

كما رأينا أن الحركة التاريخية تتميّز عن أي حركة أخرى في الكون

بأنها حركة غائية، حركة هادفة، كذلك تتميز وتتمايز الحركات التاريخية انفسها بعضها عن بعض بمثلها العليا. فلكل حركة تاريخية مثلها الاعلى، وهذا المثل الاعلى هو الذي يحدد الغايات والاهداف، وهذه الاهـداف والغايات هي التي تحدد النشاطات والتحركات ضمن مسار ذلك المثل الاعلى.

والقرآن الكريم والتعبير الديني يطلق على المثل الاعلى في جملة من الحالات اسم الإله، باعتبار ان المثل الاعلى هو القائد الآمر المطاع الموجِّه، وهذه صفات يراها القرآن للإله، ولهذا يعبر عن كل من يكون مثلاً أعلى، كل ما يحتل هذا المركز ـ مركز المثل الاعلى ـ يعبّر عنه بالإله لأنه هو الذي يصنع مسار التاريخ. حتى ورد في قوله سبحانه وتعالى ﴿أرأيْتَ منِ اتَّخذَ إلههُ هواه﴾[١] عبر حتى عن الهوى بأنه إله حينما يتصاعد هـذا الهـوى تصاعداً مصطنعاً فيصبح هو المثل الاعلى وهو الغاية القصوى لهذا الفرد أو لذاك. فالمثل العليا بحسب التعبير القرآني والديني هي آلهة في الحقيقة لأنها هي المعبودة حقاً وهي الآمرة والناهية حقاً وهي المحركة حقا، فهي آلهة في المفهوم الديني والاجتماعي.

وهذه المثل العليا التي تتبناها الجماعات البشرية على ثلاثة اقسام:

القسم الأول: المثل الاعلى الذي يستمد تصوره من الواقع نفسه، ويكون منتزعاً من واقع ما تعيشه الجماعة البشرية من ظروف وملابسات، أي ان الوجود الذهني الذي صاغ المستقبل هنا لم يستطع أن يرتفع على هذا الواقع

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية ٤٣.

وان يتجاوز هذا الواقع بل انتزع مثله الاعلى من هذا الواقـع بـحدوده، بقيوده، بشؤونه.

وحينما يكون المثل الاعلى منتزعاً عن واقع الجماعة بحدودها وقيودها وشؤونها يصبح حالة تكرارية، يصبح بتعبير آخر محاولة لتـجميد هـذا الواقع وحمله الى المستقبل، بدلاً عن التطلع الى المستقبل يكون في الحقيقة تجميداً لهذا الواقع وتحويلاً لهذا الواقع من حالة نسبية ومن امر محدود الى امر مطلق لأن الانسان يعترضه هدفاً ومثلاً أعلى، وحينما يتحول هـذا الواقع من امر محدود الى هدف مطلق، الى حقيقة مطلقة لا يتصور الانسان شيئاً وراءها، حينما يتحول الى ذلك، سوف تكون حركة التاريخ حركة تكرارية سوف يكون المستقبل تكراراً للواقع، وحيث ان هذا الواقع هـو نفسه كان تكراراً لحالة سابقة، ولهذا سوف يكون المستقبل تكراراً للواقع وللماضي.

هذا النوع من الآلهة يعتمد على تجميد الواقع وتحويل ظروفه النسبية الى ظروف مطلقة، لكي لا تستطيع الجماعة البشرية ان تتجاوز الواقع وان ترتفع بطموحاتها عن هذا الواقع.

تبني هذا النوع من المثل العليا له احد سببين:

السبب الاول الالفة والعادة والخمول والضياع، هذا سبب نفسي، الألفة والخمول والضياع سبب نفسي، اذا انتشرت هذه الحالة النـفسية: حـالة الخمول والركود والالفة والضياع في قوم، في مجتمع، حينئذ يتجمد ذلك المجتمع، لأنه سوف يصنع إلهه من واقعه، سوف يحول هذا الواقع النسبي

المحدود الذي يعيشه الى حقيقة مطلقة، الى مثل أعلى، الى هدف لا يرى وراءه شيئاً.

وهذا في الحقيقة هو ما عرضه القرآن الكريم في كثير من الآيات التي تحدثت عن المجتمعات التي واجهت الانبياء حينما جاء الأنبياء الى تلك المجتمعات بمثل عليا حقيقية ترتفع عن الواقع وتريد ان تحرك هذا الواقع وتنتزعه من حدوده النسبية الى وضع آخر، واجه هؤلاء الانبياء مجتمعات سادتها حالة الالفة والعادة والتميع فكان هذا المجتمع يرد على دعوة الانبياء ويقول باننا وجدنا آباءنا على هذه السنّة، وجدنا آباءنا على هذه الطريقة ونحن متمسكون بمثلهم الاعلى، سيطرة الواقع على اذهانهم وتغلغل الحس في طموحاتهم بلغ الى درجة تحول هذا الإنسان من خلالها الى انسان حسي لا الى انسان مفكر، الى انسان يكون ابن يومه دائماً، ابن واقعه دائماً لا أبا يومه ولا أبا واقعه، ولهذا لا يستطيع ان يرتفع على هذا الواقع.

استمعوا الى القرآن الكريم وهو يقول: ﴿قالوا بل نَتَّبعُ ما ألفَينا عليهِ آباءَنا أوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يعقِلونَ شيئاً ولا يهتدونَ﴾[1].

﴿قالوا حَسبُنا ما وجدْنا عليهِ آباءَنا، أوَلَوْ كانَ آباؤُهُم لا يعلَمونَ شيئاً ولا يهتدونَ﴾[2].

﴿قالوا أجِئتَنا لِتَلْفِتَنا عما وجَدنا عليهِ آباءَنا وتكونَ لكُما الكبرياءُ في

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٧٠.

٢ ـ سورة المائدة، الآية ١٠٤.

الأرضِ وما نحنُ لكُما بمؤمنينَ﴾[1].

﴿أتنهانا أنْ نَعبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤنا وإنَّنا لفي شكٍّ ممَّا تدعُونا إليهِ مُريبٍ﴾[2].

﴿قالتْ رُسُلُهم أفي اللهِ شكٌّ فاطرِ السَّمٰواتِ والارضِ يدعُوكُم لِيغفرَ لكُمْ من ذُنُوبكُمْ ويؤخِّرَكُم الى أجلٍ مسمّىً، قالوا إن أنتم إلّا بشرٌ مثلنا تريدونَ أنْ تصدُّونا عَمَّا كان يَعبُدُ آباؤنا فأتونا بسُلطانٍ مبينٍ﴾[3].

﴿بل قالوا إنَّا وجدنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنّا على آثارِهِم مهتدُونَ﴾[4].

في كل هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم السبب الاول لتبني المجتمع هذا المثل الاعلى المنخفض. هؤلاء بحكم الالفة والعادة وبحكم التميّع والفراغ وجدوا سنة قائمة، وجدوا وضعاً قائماً فلم يسمحوا لأنفسهم بأن يتجاوزوه، جسدوه كمثل أعلى وعارضوا به دعوات الانبياء على مر التاريخ، هذا هو السبب الاول لتبني هذا المثل الاعلى المنخفض.

والسبب الثاني لتبني هذا المثل الاعلى المنخفض هو التسلط الفرعوني على مرّ التاريخ، الفراعنة على مر التاريخ حينما يحتلون مراكزهم يجدون في أي تطلع الى المستقبل، وفي أي تجاوز للواقع الذي سيطروا عليه، يجدون في ذلك زعزعة لوجودهم وهزّاً لمراكزهم.

---

١ ـ سورة يونس، الآية ٧٨.

٢ ـ سورة هود، الآية ٦٢.

٣ ـ سورة ابراهيم، الآية ١٠.

٤ ـ سورة الزخرف، الآية ٢٢.

من هنا من مصلحة فرعون على مرّ التاريخ ان يغمض عيون الناس على هذا الواقع، ان يحول الواقع الذي يعيشه مع الناس الى مطلق، الى إله، الى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه، يحاول ان يحبس وان يضع كل الامة في اطار نظرته هو، في اطار وجوده هو لكي لا يمكن لهذه الامة ان تفتش عن مثل أعلى ينقلها من الحاضر الى المستقبل، من واقعه الى طموح آخر اكبر من هذا الواقع. هنا السبب اجتماعي لا نفسي، السبب خارجي لا داخلي.

وهذا ايضاً ما عرضه القرآن الكريم **﴿وقالَ فِرعونُ يا أيُّها المَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ من إله غيري﴾**[1]، **﴿قال فِرْعونُ ما أُريكُمْ إلّا ما أرى وما أهْديكُمْ إلّا سبيلَ الرَّشادِ﴾**[2].

هنا فرعون يقول ما أريكم إلّا ما أرى يريد ان يضع النـاس الذيـن يعبدونه كلهم في اطار رؤيته، في اطار نظرته، يحول هذه النظرة وهـذا الواقع، الى مطلق لا يمكن تجاوزه، هنا الذي يجعل المجتمع يتبنى مثلاً اعلى مستمداً من الواقع هو التسلط الفرعوني الذي يرى في تجاوز هذا المثل الأعلى خطراً عليه وعلى وجوده.

قال الله سبحانه وتعالى: **﴿ثُمَّ أرسلنا مُوسى وأخاهُ هارونَ بآياتنا وسلطانٍ مبين، إلى فرعَونَ ومَلئِهِ فاستكبَروا وكانوا قوماً عالين، فقالوا أنؤمِنُ لبشرين مِثلنا وقومُهُما لنا عابدَون﴾**[3] نحن غير مستعدين ان نؤمن بـهذا المـثل

---

١ ـ سورة القصص، الآية ٣٨.

٢ ـ سورة غافر، الآية ٢٩.

٣ ـ سورة المؤمنون، الآيات ٤٥ ـ ٤٧.

الاعلى الذي جاء به موسى لأنه سوف يزعزع عبادة قوم موسى وهارون لهم. اذن هذا التجميد ضمن اطار الواقع الذي تعيشه الجماعة أي جماعة بشرية ينشأ من حرص أولئك الذين تسلطوا على هذه الجماعة على أن يضمنوا وجودهم ويضمنوا الواقع الذي هم فيه وهم بناته، هذا هو السبب الثاني الذي عرضه القرآن الكريم. والقرآن الكريم يسمي هذا النوع من القوى التي تحاول ان تحول هذا الواقع المحدود الى مطلق وتحصر الجماعة البشرية في اطار هذا المحدود، يسمي هذا بالطاغوت. قال سبحانه وتعالى:

﴿والَّذينَ اجتنبوا الطَّاغوتَ أنْ يَعبدُوها وأنابوا الى الله لهُمُ البُشرى فبَشِّرْ عبادِ الَّذينَ يستمعونَ القولَ فيتَّبعونَ أحسنهُ أولئكَ الذين هداهُمُ اللهُ وأُولئكَ هُمْ أولو الالباب﴾[1]. لاحظوا ذكر صفة اساسية مميزة لمن اجتنب عبادة الطاغوت.

ما هي الصفة الأساسية المميزة التي ذكرها القرآن لمن اجتنب عبادة الطاغوت؟

قال ﴿فبَشِّرْ عبادِ الَّذينَ يستمعونَ القولَ فيتَّبعون أحسنهُ﴾[2].

يعني لم يجعلوا هناك قيداً على ذهنهم، لم يجعلوا اطاراً محدوداً لا يمكنهم ان يتجاوزوه، جعلوا الحقيقة مدار همّهم، جعلوا الحقيقة هدفهم ولهذا يستمعون القول فيتبعون أحسنه، يعني هم في حالة طموح، في حالة تطلع وموضوعية، في حالة تسمح لهم بأن يجدوا الحقيقة. بينما لو كانوا يعبدون

---

١ و ٢ ـ سورة الزمر، الآيتان ١٧ ـ١٨.

الطاغوت، حينئذ سوف يكونون في اطار هذا الواقع الذي يريده الطاغوت، سوف لن يستطيعوا أن يستمعوا الى القول فيتبعون أحسنه، وانما يتبعون فقط ما يراد لهم ان يتبعوه. هذا هو السبب الثاني لاتباع وتبني هذه المثل.

اذن خلاصة ما مرّ بنا حتى الآن: أن التاريخ يتحرك من خلال البناء الداخلي للانسان، الذي يصنع للانسان غاياته، هذه الغايات تُبنى على أساس المثل الاعلى الذي تنبثق عنه تلك الغايات. لكل مجتمع مثل أعلى ولكل مثل أعلى مسار ومسيرة، وهذا المثل الاعلى هو الذي يحدد في تلك المسيرة معالم الطريق، وهذا المثل الاعلى على ثلاثة أقسام، حتى الآن استعرضنا القسم الأول من المثل العليا وهو المثل الاعلى الذي ينبثق تصوره عن الواقع ويكون منتزعاً عن الواقع الذي تعيشه الجماعة وهذا مثل أعلى تكراري، وتكون الحركة التاريخية في ظل هذا المثل الاعلى حركة تكرارية، أخذ الحاضر لكي يكون هو المستقبل، وقلنا بأن تبني هذا النوع من المثل الاعلى يقود الى احد سببين بحسب تصورات القرآن الكريم.

السبب الأول سبب نفسي وهو الألفة والعادة والضياع.

والسبب الآخر سبب خارجي وهو تسلط الفراعنة والطواغيت على مرّ التاريخ.

عناصر المجتمع

في القرآن الكريم (٣)[1]

هذه المثل العليا المنخفضة المنتزعة عن الواقع والتي تحدثنا عنها في الأمس في كثير من الاحيان تتخذ طابع الدين، ويسبغ عليها هذا الطابع من أجل اعطائها قدسية تحافظ على بقائها واستمرارها على الساحة، كما رأينا في الآيات الكريمة المتقدمة كيف ان المجتمعات التي رفضت دعوة الانبياء كثيراً ما كانت تصر على التمسك بعبادة الآباء وبدين الآباء، بالمثل الاعلى المعبود للآباء، بل ان الحقيقة أن كل مثل اعلى من هذه المثل العليا المنخفضة لا ينفك عن الثوب الديني سواء أبرز بشكل صريح أو لم يبرز لأن المثل الاعلى دائماً يحتل مركز الإله بحسب التعبير القرآني والاسلامي، ودائماً تستبطن علاقة الامة بمثلها الاعلى نوعاً من العبادة، من العبادة لهذا المثل الاعلى وليس الدين بشكله العام إلّا علاقة عابد بمعبود.

---

١ ـ الدرس العاشر، يوم الأربعاء ١٨/ج ٢/ ١٣٩٩ هـ.

اذن المثل الاعلى لا ينفك عن الثوب الديني سواء كان ثوباً دينياً صريحاً، او ثوباً دينياً مستتراً مبرقعاً تحت شعارات اخرى فهو في جوهره دين وفي جوهره عبادة وانسياق. إلّا ان هذه الاديان التي تفرزها هذه المثل العليا المنخفضة اديان محدودة تبعاً لمحدودية نفس هذه المثل، لمّا كانت هذه المثل مثلاً منخفضة ومحدودة قد حولت بصورة مصطنعة الى مطلقات وإلّا هي في الحقيقة ليست إلّا تصورات جزئية عبر الطريق الطويل الطويل للانسان، إلّا أنها حولت الى مطلقات بصورة مصطنعة.

اذن هذه المحدودية في المثل تعكس الاديان التي تفرزها، فالاديان التي تفرزها هذه المثل أو بالتعبير الأحرى الاديان التي يفرزها الانسان من خلال صنع هذه المثل، ومن خلال عملقة هذه المثل وتطويرها من تصورات الى مطلقات، هذه الاديان تكون اديانا محدودة وضئيلة، أديان التجزئة، هذه الأديان هي أديان التجزئة في مقابل دين التوحيد الذي سوف نتكلم عنه حينما نتحدث عن مثله الأعلى القادر على استيعاب البشرية بأبعادها، هذه الأديان أديان التجزئة، هذه الآلهة، الآلهة التي يفرزها الانسان بين حين وحين هي التي يعبر عنها القرآن الكريم بقوله ﴿إنْ هي إلّا أسماءٌ سمَّيتموها أنتُم وآباؤكُم﴾[1] هذا الإله الذي يفرزه الانسان، هذا الدين الذي يصنعه الانسان، وهذا المثل الاعلى الذي هو نتاج بشري، هذا لا يمكن ان يكون هو الدين القيم، لا يمكن ان يكون هو المصعِّد الحقيقي للمسيرة البشرية، لأن المسيرة البشرية لا يمكن ان تخلق

---

١ ـ سورة النجم، الآية ٢٣.

إلهها بيدها.

المجتمعات والامم التي تعيش هذا المثل الاعلى المنخفض المستمد من واقع الحياة، قلنا بأنها تعيش حالة تكرارية، يعني ان حركة التاريخ تصبح حركة تماثلية وتكرارية، وهذه الأمة تأخذ بيدها ماضيها الى الحاضر، وحاضرها الى المستقبل ليس لها مستقبل في الحقيقة وانما مستقبلها هو ماضيها.

ومن هنا اذا تقدمنا خطوة في تحليل ومراقبة ومشاهدة اوضاع هذه الأمة التي تتمسك بمثل من هذا القبيل، اذا تقدمنا خطوة الى الامام نجد ان هذه الامة بالتدريج سوف تفقد ولاءها لهذا المثل ايضاً، لن تظل متمسكة بهذا المثل لأن هذا المثل بعد ان يفقد فاعليته وقدرته على العطاء، بعد ان يصبح نسخة من الواقع، بعد ان يصبح أمراً مفروضاً ومحسوساً وملموساً، بعد ان يصبح غير قادر على تطوير البشرية وتصعيدها في مسارها الطويل، تفقد هذه البشرية، هذه الجماعة تفقد بالتدريج ولاءها لهذا المثل، ومعنى انها تفقد ولاءها لهذا المثل يعني ان القاعدة الجماهيرية الواسعة في هذه الامة سوف تتمزق وحدتها لأن وحدة هذه القاعدة انما هي بالمثل الواحد فاذا ضاع المثل ضاعت هذه القاعدة.

هذه الامة بعد ان تفقد ولاءها لهذا المثل تصاب بالتشتت، بالتمزق، بالتبعثر، تكون كما وصف القرآن الكريم ﴿بأسُهُمْ بينَهُم شديدٌ تَحسَبُهُمْ جميعاً وقُلوبُهم شتىّ ذلك بأنَّهُم قومٌ لا يعقلونَ﴾[1] بأسهم بينهم شديد باعتبار ان

---

١ ـ سورة الحشر، الآية ١٤.

التناقضات تبدأ في داخل هذه الأمة، هذه الامة التي لا يجمعها مثل أعلى، لا تجمعها طريقة مثلى، لا يجمعها سبيل واحد، قلوب متفرقة، أهواء متشتتة، ارواح متبعثرة، عقول مجمدة، في حالة من هذا القبيل لا تبقى امة وانما يبقى شبح امة فقط. وفي ظل هذا الشبح سوف ينصرف كل فرد في هذه الامة ينصرف الى همومه الصغيرة، الى قضاياه المحدودة لانه لا يوجد هناك مثل أعلى تلتف حوله الطاقات، تلتف حوله القابليات والامكانات، تحشد من اجله التضحيات، لا يوجد هذا المثل الاعلى، حينما يسقط هذا المثل الاعلى تسقط الراية التي توحد الامة، يبقى كل انسان مشدوداً الى حاجاته المحدودة، الى مصالحه الشخصية، الى تفكيره في اموره الخاصة، كيف يصبح؟ كيف يمسي؟ كيف يأكل؟ كيف يشرب؟ كيف يوفر الراحة والاستقرار له ولأولاده ولعائلته؟ أي راحة؟ أي استقرار؟ الراحة بالمعنى الرخيص من الراحة، والاستقرار بالمعنى القصير من الاستقرار، يبقى كل انسان سجين حاجاته الخاصة، سجين رغباته الخاصة، يبقى يدور، يبقى يلتف حول هذه الرغبات وحول هذه الحاجات لا يرى غيرها اذ لا يوجد المثل، إذا ضاع المثل وتفتت وسقط في حالة من حالات هذه الامة، قلنا بأن الامة تتحول الى شبح، لا تبقى امة حقيقية، وانما هناك شبح امة. وقد علمنا التاريخ انه في حالة من هذا القبيل توجد ثلاثة اجراءات، ثلاثة بدائل يمكن ان تنطبق على حالة هذه الامة الشبح.

الإجراء التاريخي الأول: هو ان تتداعى هذه الامة أمام غزو عسكري من الخارج لأن هذه الامة التي افرغت من محتواها، التي تخلّت عن وجودها كأمة، وبقيت كأفراد، كل انسان يفكر في طعامه، يفكر في لباسه،

يفكر في دار سكناه ولا يفكر في الأمة، لن يبقى هناك من يفكر في الأمة، وانما كلّ انسان يفكر في حاجاته حين يفكر. اذن في وضع من هذا القبيل يمكن ان تتداعى هذه الأمة امام غزو من الخارج، وهذا ما وقع بالفعل بعد ان فقد المسلمون مثلهم الاعلى وفقدوا ولاءهم لهذا المثل الاعلى ووقعوا فريسة غزو التتار حينما سقطت حضارة المسلمين بأيدي التتار، هذا هو الاجراء التاريخي الاول.

والإجراء التاريخي الثاني: هو الذوبان والانصهار في مثل اعلى اجنبي في مثل مستورد من الخارج، هذه الامة بعد ان فقدت مثلها العليا النابعة منها فقدت فاعليتها وأصالتها، حينئذ تفتش عن مثل اعلى من الخارج لكي تعطيه ولاءها، لكي تمنحه قيادتها. هذا هو الإجراء التاريخي الثاني.

والإجراء التاريخي الثالث: ان ينشأ في اعماق هذه الامة بذور اعادة المثل الاعلى من جديد بمستوى العصر الذي تعيشه تلك الامة، هذان الاجراءان، الإجراء الثاني والإجراء الثالث وقفت الأمة امامهما على مفترق طريقين حينما دخلت عصر الاستعمار، حينما دخلت الأمة عصر الاستعمار وقفت على مفترق طريقين: كان هناك طريق يدعوها الى الانصهار في مثل اعلى من الخارج، هذا الطريق الذي طبقه جملة من حكام المسلمين في بلاد المسلمين «رضا خان» في ايران و «أتاتورك» في تركيا، حاول هؤلاء ان يجسدوا المثل الاعلى للانسان الاوروبي المنتصر، ويطبقوا هذا المثل الاعلى ويكسبوا ولاء المسلمين انفسهم لهذا المثل الاعلى، بعد ان ضاع المثل الاعلى في داخل المسلمين. بينما رواد الفكر الاسلامي في بدايات عصر الاستعمار وفي اواخر الفترة التي سبقت عصر الاستعمار، رواد الفكر

الاسلامي ورواد النهضة الاسلامية أطلقوا جهودهم في سبيل الاجراء الثالث في سبيل إعادة الحياة الى الاسلام من جديد، في سبيل انتشار هذا المثل الاعلى وإعادة الحياة اليه وتقديمه بلغة العصر وبمستوى العصر وبمستوى حاجات المسلمين. الامة تتحول الى شبح فتواجه أحد هذه الاجراءات الثلاثة.

الآن تكلمنا عن امة هذه الآلهة المنخفضة، حينما نتقدم خطوة، اذا تقدمنا خطوة نجد المثل التكراري يتمزق، ان الامة تفقد ولاءها، ان الامة تتحول الى شبح تواجه أحد هذه الاجراءات الثلاثة، الآن نرجع الى الوراء خطوة. اذا رجعنا الى الوراء خطوة، سوف نواجه النوع الثاني من الآلهة، من المثل العليا، أليس قلنا في البداية ان المثل العليا عكس ثلاثة انواع. تكلمنا الآن عن النوع الاول.

إذا رجعنا خطوة الى الوراء ـ هذا ما سوف اشرح معناه بعد لحظات ـ سوف نواجه النوع الثاني من الآلهة من المثل العليا. هذا النوع الثاني يعبر عن كل مثل أعلى للامة يكون مشتقاً من طموح الامة، من تطلعها الى المستقبل. ليس هذا المثل تعبيراً تكرارياً عن الواقع بل هو تطلع الى المستقبل، تحفز نحو الجديد، نحو الابداع والتطوير، ولكنّ هذا المثل منتزع عن خطوة واحدة من المستقبل، منتزع عن جزء من هذا الطريق الطويل المستقبلي، أي أن هذا الطموح الذي منه انتزعت الامة مثلها، كان طموحاً محدوداً كان طموحاً مقيداً لم يستطيع ان يتجاوز المسافات الطويلة، وانما استطاع ان يكوّن رؤية مستقبلية محدودة، وهذه الرؤية المستقبلية المحدودة انتزع منها مثله الاعلى.

وفي هذا المثل الاعلى جانب موضوعي صحيح ولكنه يحتوي على امكانياتَ خطر كبير، اما الجانب الموضوعي الصحيح فهو ان الانسان عبر مسيرته الطويلة لا يمكنه ان يستوعب برؤيته الطريق الطويل الطويل كله، لا يمكنه ان يستوعب المطلق لأن الذهن البشري محدود والذهن البشري المحدود لا يمكن ان يستوعب المطلق وانما هو دائماً يستوعب نفحة من المطلق، شيئاً من المطلق، يأخذ بيده قبضة من هذا المطلق تنير له الطريق، تنير له الدرب. فكون دائرة الاستيعاب البشري محدودة، هذا أمر طبيعي أمر صحيح وموضوعي.

ولكن الخطير في هذه المسألة ان هذه القبضة التي يقبضها الانسان من المطلق، هذه القبضة، هذه الكومة المحدودة، هذه الومضة من النور التي يقبضها من هذا المطلق، يحولها الى نور السماوات والأرض، يحولها الى مثل أعلى، يحولها الى مطلق.

هنا يكمن الخطر لأنه حينما يصنع مثله الاعلى وينتزع هذا المثل الأعلى من تصور ذهني محدود للمستقبل، لكن يحوّل هذا التصور الذهني المحدود الى مطلق، حينئذ هذا المثل الاعلى سوف يخدمه في المرحلة الحاضرة سوف يهيئ له امكانيات النمو بقدر طاقات هذا المثل، بقدر ما يمثل للمستقبل، بقدر امكاناته المستقبلية سوف يحرك هذا الانسان وينشط هذا الانسان، لكن سرعان ما سوف يصل الى حدوده القصوى، إلى حدود هذا المثل القصوى، وحينئذ سوف يتحول هذا المثل نفسه الى قيد للمسيرة، الى عائق عن التطور، الى مجمّد لحركة الانسان لأنه اصبح مثلاً، أصبح إلهاً، أصبح ديناً؛ أصبح واقعاً قائماً، وحينئذ سوف يكون بنفسه عقبة أمام

استمرار زحف الانسان نحو كماله الحقيقي.

وهذا المثل الذي يعمم خطأ يحول من محدود الى مطلق، خطأ التعميم فيه تارة يكون تعميماً افقياً خاطئاً وأخرى تعميماً زمنياً خاطئاً، هناك تعميمان خاطئان لهذا المثل، هناك تعميم افقي خاطئ وهناك تعميم زمني عمودي خاطئ:

التعميم الافقي الخاطئ: ان ينتزع الانسان من تصوره المستقبلي مثلاً ويعتبر ان هذا المثل يضم كل قيم الانسان التي يجاهد من اجلها، ويناضل في سبيلها. بينما هذا المثل على الرغم من صحته إلّا انه لا يمثل إلّا جزءاً من هذه القيم. فهذا التعميم تعميم افقي خاطئ هذا المثل يكون معبراً عن جزء من افق الحركة بينما جرد منه ما يملأ كل افق الحركة.

الانسان الاوروبي الحديث في بدايات عصر النهضة وضع مثلاً اعلى وهو الحرية، جعل الحرية مثلاً اعلى لأنه رأى ان الانسان الغربي كان محطَّماً ومقيَّداً، كانت على يديه الاغلال في كل ساحات الحياة، كان مقيدا في عقائده العلمية والدينية بحكم الكنيسة وتعنت الكنيسة، كان مقيداً في قوته ورزقه بأنظمة الاقطاع، كان مقيداً اينما يسير، اراد الانسان الاوروبي الرائد لعصر النهضة ان يحرر هذا الانسان من هذه القيود، من قيود الكنيسة، من قيود الاقطاع، اراد ان يجعل من الانسان كائناً مختاراً اذا أراد ان يفعل يفعل، يفكر بعقله لا بعقل غيره، ويتصور ويتأمل بذاته ولا يستمد هذا التصور كصيغ ناجزة من الآخرين.

وهذا شيء صحيح إلّا ان الشيء الخاطئ في ذلك هو التعميم الافقي فإن

هذه الحرية بمعنى كسر القيود عن هذا الانسان، هذا قيمة من القيم، هذا اطار للقيم، ولكن هذا وحده لا يصنع الانسان، ليس هذا هو المثل الأعلى فان هذا وحده لا يصنع الإنسان، انت لا تستطيع ان تصنع الانسان بأن تكسر عنه القيود وتقول له افعل ما شئت، لا يوجد انسان ولا كائن، لا يوجد اقطاعي ولا قسيس ولا سلطان ولا طاغوت يضطرك الى موقف أو يفرض عليك موقفاً، هذا وحده لا يكفي فإن كسر القيود انما يشكل الاطار للتنمية البشرية الصالحة، يحتاج هذا الى مضمون الى محتوى، مجرد انه يستطيع ان يتصرف، يستطيع ان يمشي في الاسواق هذا لا يكفي، اما كيف يمشي؟ ما هو الهدف الذي من اجله يمشي في الاسواق؟ المحتوى والمضمون هو الذي فات الانسان الاوروبي، الانسان الاوروبي جعل الحرية هدفاً وهذا صحيح ولكنه صيّر من هذا الهدف مثلاً اعلى بينما هذا الهدف ليس إلّا اطاراً في الحقيقة وهذا الاطار بحاجة الى محتوى والى مضمون واذا جرد هذا الاطار عن محتواه سوف يؤدي الى الويل والدمار، الى الويل الذي تواجهه الحضارة الغربية اليوم التي صنعت للبشرية كل وسائل الدمار لأن الاطار بقي بلا محتوى، بقي بلا مضمون. حينئذ هذا هو مثال للتعميم الافقي، التعميم الافقي للمثل الاعلى.

واما التعميم الزمني ايضاً، كذلك على مر التاريخ توجد خطوات ناجحة تاريخيا ولكنها لا يجوز ان تحول من حدودها كخطوة الى مطلق، الى مثل أعلى يجب ان تكون ممارسة تلك الخطوة ضمن المثل الاعلى لا ان تحول هذه الخطوة الى مثل اعلى حينما اجتمع في التاريخ مجموعة من الاسر فشكلوا القبيلة، حينما اجتمعت مجموعة من القبائل فشكلت عشيرة، حينما

اجتمعت مجموعة من العشائر فشكلت أمة، هذه الخطوات صحيحة في تقدم البشرية وتوحيد البشرية، ولكن كل خطوة من هذه لا يجب ان تتحول الى مثل اعلى، لا يجوز ان تتحول الى مطلق، لا يجوز ان تكون العشيرة هي المطلق الذي يحارب من أجله هذا الانسان، وانما المطلق الذي يحارب من اجله الانسان يبقى هو ذاك المطلق الحقيقي، يبقى هو الله سبحانه وتعالى، الخطوة تبقى كأسلوب ولكن المطلق يبقى هو الله سبحانه وتعالى، هذا التعميم الزمني ايضا هو شكل من التعميم الخاطئ حينما يحول هذا المثل المنتزع من خطوة محدودة عبر الزمن يحول الى مثل اعلى.

وحال هذا الانسان الذي يحول هذه الرؤية المحدودة من عبر الزمن يحولها الى مطلق، حاله حال الانسان الذي يتطلع الى الافق فلا تساعده عينه إلّا على النظر الى مسافة محدودة فيخيل له بأن الدنيا تنتهي عند الافق الذي يراه، ان السماء تنطبق على الارض على مسافة قريبة منه وقد يخيل له وجود الماء، وجود السراب على مقربة منه. إلّا ان هذا في الحقيقة ناشئ من عجز عينه عن ان يتابع المسافة الارضية الطويلة الامد.

كذلك هنا هذا الانسان الذي يقف على طريق التاريخ الطويل، على طريق المسيرة البشرية، له افق بحكم قصوره الذهني، بحكم محدودية الذهن البشري، له افق كذلك الافق الجغرافي ولكن هذا الافق يجب ان يتعامل معه كافق، لا كمطلق كما اننا نحن على الصعيد الجغرافي لا نتعامل مع هذا الافق الذي نراه على بعد عشرين متراً أو مائتي متر انه نهاية الارض، وانما نتعامل معه بأنه أفق، كذلك ايضاً هنا يجب ان يتعامل هذا الانسان معه كافق لا يحول هذا الافق التاريخي الى مثل اعلى وإلّا كان من

قبيل من يسير نحو سراب.

انظر والى التمثيل الرائع في قوله سبحانه وتعالى: ﴿والَّذينَ كفروا أعمالُهُمْ كسرابٍ بقيعَةٍ يحسَبُهُ الظَّمآنُ ماءً حتّى إذا جاءَهُ لمْ يجِدهُ شيئاً ووجَدَ اللهَ عِندهُ فوَفَّاه حسابه والله سريعُ الحسابِ﴾[1].

يعبر القرآن عن كل هذه المثل المصطنعة من دون الله سبحانه وتعالى بانها كبيت العنكبوت، يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذينَ اتَّخذوا مِنْ دونِ اللهِ أولياءَ كمثل العنكَبُوتِ اتَّخذت بيتاً وانَّ أوهنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمونَ﴾[2].

إذا قارنا بين هذين النوعين من المثل العليا: المثل العليا من الواقع والمثل العليا المشتقة من طموح محدود، يمكننا ان نلاحظ ان المثل العليا المشتقة من الواقع كثيراً ما تكون قد مرت بمرحلة هذه المثل العليا التي تعبر عن طموح محدود، يعني كثيراً ما تكون تلك المثل من النوع الاول امتداداً للمثل من النوع الثاني، بأن يبدأ المثل ويبدأ هذا المثل الاعلى مشتقاً من طموح، لكن حينما يتحقق هذا الطموح المحدود، حينما تصل البشرية الى النقطة التي أثارت هذا المثل، يتحول هذا المثل الى واقع محدود بحسب الخارج، حينئذ يصبح مثلاً تكرارياً.

من هنا قلنا في ما سبق أننا لو رجعنا خطوة الى الوراء بالنسبة الى آلهة النوع الاول، مثل النوع الاول، لو رجعنا خطوة الى الوراء لوجدنا آلهة

---

١ ـ سورة النور، الآية ٣٩.

٢ ـ سورة العنكبوت، الآية ٤١.

النوع الثاني، فالمسألة في كثير من الاحيان تبدأ هكذا، تبدأ بمثل اعلى له طموح مشتق من طموح مستقبلي ثم يتحول هذا المثل الاعلى الى مثل تكراري، ثم يتمزق هذا المثل التكراري كما قلنا وتتحول الامة الى شبح أمة.

في هذه الفترة الزمنية تمر الامة بمراحل في الحقيقة، يمكننا تلخيصها في اربع مراحل:

المرحلة الاولى هي مرحلة فاعلية هذا المثل بحكم انه قد بدأ مشتقاً من طموح مستقبلي ومن نظرة مستقبلية، فهذا المثل يكون له في المرحلة الاولى فاعلية وعطاء وتجديد بقدر ما يكون له من ارتباط بالمستقبل.

ولكن طبعاً هذه الفاعلية وهذا العطاء وهذا التجديد هو عطاء يسميه القرآن بالعاجل، مكاسب عاجلة، وليست مكاسب على الخط الطويل. هذه المكاسب مكاسب عاجلة لأن عمر هذا المثل قصير، لأن عطاء هذا المثل محدود، لأن هذا المثل سوف يتحول في لحظة من اللحظات الى قوة ابادة لكل ما اعطاه من مكاسب ولهذا يسمى هذا بالعاجل.

انظرو الى قوله تعالى ﴿مَنْ كان يُريدُ العاجلةَ عجَّلنا لَهُ فيها ما نشاءُ لمَن نريدُ ثمَّ جعلنا له جهنّمَ يصلاها مذموماً مدْحُوراً، ومَنْ أرادَ الآخرةَ وسعى لها سَعيَها وهوَ مؤمنٌ فأولئكَ كانَ سَعيُهُم مشكوراً كُلّاً نُمدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ من عطاءِ ربِّكَ وما كان عطاءُ ربِّكَ محظوراً﴾[1]، الله سبحانه وتعالى خير محض، عطاء

---

١ ـ سورة الإسراء، الآيات ١٨ ـ ٢٠.

محض، جود كله، فبقدر ما تتبنى الامة مثلاً قابلاً للتحريك، الله سبحانه وتعالى ايضاً يعطي، لكنه يعطي بقدر قابلية هذا المثل، يعطي شيئاً عاجلاً لا أكثر.

في حالة من هذا القبيل تكون السلطة التي تمثل هذا المثل، تكون هذه السلطة ذات مثل أعلى، ذات مثل يعطي ويبدع وتكون قيادة موجهة للامة في حدود هذا المثل ويكون للامة دور المشاركة في صنع هذا المثل وفي تحقيق هذا المثل.

هذه المرحلة سوف تؤدي الى مكاسب، ولكنها في النظر القرآني العميق الطويل الامد مكاسب عاجلة تعقبها جهنم، جهنم في الدنيا وجهنم في الآخرة. هذه المرحلة الاولى مرحلة الابداع والتجديد.

المرحلة الثانية حينما يتجمد هذا المثل الاعلى، حينما يستنفد طاقته وقدرته على العطاء، حينئذ يتحول هذا المثل الى تمثال ولا يبقى مثلاً وانما سوف يتحول الى تمثال، والقادة الذين كانوا يعطون ويوجهون على أساسه يتحولون الى سادة وكبراء لا الى قادة، وجمهور الامة يتحول الى مطيعين ومنقادين لا الى مشاركين في الابداع والتطوير، وهذه المرحلة هي المرحلة التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وقالوا ربَّنا إنّا أطعنا سادَتنا وكُبراءَنا فأضلُّونا السَّبيلا﴾[1].

ثم تأتي المرحلة الثالثة؛ مرحلة الامتداد التاريخي لهؤلاء، هذه السلطة

---

١ ـ سورة الاحزاب، الآية ٦٧.

تتحول الى طبقة بعد ذلك تتوارث مقاعدها عائلياً أو طبقياً وراثياً بشكل من اشكال الوراثة، وحينئذ تصبح هذه الطبقة هي الطبقة المترفة المنعمة الخالية من الاغراض الكبيرة، المشغولة بهمومها الصغيرة وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿وكذلك ما أرسلنا من قَبلكَ في قريةٍ من نذير إلّا قال مُترفوها إنّا وجدنا آباءَنا على أُمّةٍ وإنا على آثارِهِم مُقتدون﴾[1] هؤلاء نتاج آباء، هؤلاء امتداد تاريخي لآباء لهم تاريخ وهم امتداد تاريخي، وهذا الامتداد التاريخي تحول من مستوى مثل وعطاء الى مستوى طبقة مترفة تتوارث هذا المقعد بشكل من اشكال التوارث. هذه هي المرحلة الثالثة.

ثم حينما تتفتت الامة، حينما تتمزق الامة، حينما تفقد ولاءها لذلك المثل التكراري على ضوء ما قلناه تدخل في مرحلة رابعة وهي أخطر مراحلها ففي هذه المرحلة يسيطر عليها مجرموها، يسيطر عليها اناس لا يرعون عهداً ولا ذمة وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وكذلكَ جعلنا في كُلِّ قريةٍ أكابِرَ مجرميها ليَمكرُوا فيها وما يَمكرُونَ إلّا بأنفُسهِم﴾[2]. حينئذ يسيطر مجموعة من هؤلاء المجرمين.

يسيطر هتلر والنازية مثلاً في جزء من أوروبا لكي يحطم كل ما في أوروبا من خير وكل ما في اوروبا من ابداع، لكي يقضي على كل تبعات ذلك المثل الاعلى الذي رفعه الانسان الاوروبي الحديث والذي تحول بالتدريج الى مثل تكراري ثم تفسخ هذا المثل لكن بقيت مكاسبه في

---

١ ـ سورة الزخرف، الآية ٢٣.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ١٢٣.

المجتمع الاوروبي، يأتي شخص كهتلر لكي يمزق كل تلك المكاسب ويقضي على كل تلك المكاسب.

الآن نصل الى النوع الثالث من المثل العليا. النوع الثالث من المثل العليا هو المثل الأعلى الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى. في هذا المثل التناقض الذي واجهناه سوف يحل بأروع صورة، كنا نجد تناقضاً وحاصل هذا التناقض هو ان الوجود الذهني للانسان محدود، والمثل يجب ان يكون غير محدود فكيف يمكن توفير المحدود وغير المحدود وكيف يمكن التنسيق بين المحدود وغير المحدود، هذا التنسيق بين المحدود وغير المحدود سوف نجده في المثل الاعلى الذي هو الله سبحانه وتعالى.. لماذا؟ لأن هذا المثل الاعلى ليس من نتاج الانسان، ليس افرازاً ذهنياً للانسان، بل هو مثل أعلى عيني له واقع عيني، هو موجود مطلق في الخارج، له قدرته المطلقة وله علمه المطلق وله عدله المطلق. هذا الموجود العيني بواقع العين يكون مثلاً أعلى لأنه مطلق لكن الانسان حينما يريد ان يستلهم من هذا النور، حينما يريد ان يمسك بحزمة من هذا النور، طبعاً هو لا يمسك إلّا بالمقيد، إلّا بقدر محدود من هذا النور إلّا انه يميز بين ما يمسك به وبين مثله الاعلى، المثل الاعلى خارج حدود ذهنه، لكنه يمسك بحزمة من النور، هذه الحزمة مقيدة لكن المثل الاعلى مطلق.

ومن هنا حرص الاسلام على التمييز دائماً بين الوجود الذهني وما بين الله سبحانه وتعالى الذي هو المثل الاعلى. فرق حتى بين الاسم والمسمى وأكد على انه لا يجوز عبادة الاسم، وانما العبادة تكون للمسمى لأن الاسم ليس إلّا وجوداً ذهنياً، إلّا واجهة ذهنية لله سبحانه وتعالى، بينما الواجهات

الذهنية دائماً محدودة، العبادة يجب ان تكون للـمسمى لا للاســم، لأن المسمى هو المطلق اما الاسم فهو مقيد ومحدود، الواجهات الذهنية تبقى كواجهات ذهنية محدودة مرحلية واما صفة المثل الاعلى تبقى قائمة بالله سبحانه وتعالى. وهذا ما يأتي إن شاء الله توضيحه.

عناصر المجتمع

في القرآن الكريم (٤)[١]

قال الله سبحانه وتعالى ﴿يا أيُّها الانسانُ إنَّكَ كادحٌ إلى ربِّكَ كدحاً فمُلاقيهِ﴾[٢].

هذه الآية الكريمة تضع الله سبحانه وتعالى هدفاً أعلى للانسان والانسان هنا بمعنى الانسانية ككل، فالانسانية بمجموعها تكدح نحو الله سبحانه وتعالى، والكدح كدح الانسانية ككل، نحو الله سبحانه وتعالى، يعني السير المستمر بالمعاناة وبالجهد وبالمجاهدة، لأن هذا السير ليس سيراً اعتيادياً، بل هو سير ارتقائي، هو تصاعد وتكامل، هو سير تسلق.

فهؤلاء الذين يتسلقون الجبال ليصلوا الى القمم يكدحون نحو هذه القمم، يسيرون سير معاناة وجهد.

كذلك الانسانية حينما تكدح نحو الله فإنما هي تتسلق الى قمم كمالها

١ ـ الدرس الحادي عشر، يوم الثلاثاء ٢٤/ ج ٢/ ١٣٩٩ هـ.

٢ ـ سورة الانشقاق: الآية ٦.

وتكاملها وتطورها الى الافضل باستمرار.

وهذا السير الذي يحتوي على المعاناة باستمرار، هذا السير يفترض طريقاً لا محالة، فان السير نحو هدف يفترض حتماً طريقاً ممتداً بين السائر وبين ذلك الهدف، وهذا الطريق هو الذي تحدثت عنه الآيات الكريمة في المواضع المتفرقة تحت اسم سبيل الله واسم الصراط واسم صراط الله، هذه الصيغ القرآنية المتعددة كلها تتحدث عن الطريق الذي يفترضه ذلك السير وكما ان السير يفترض الطريق، كذلك الطريق يفترض السير ايضاً، وهذه الآية الكريمة ﴿يا أيُّها الإنسانُ انَّكَ كادحٌ إلى ربِّكَ كَدحاً فَمُلاقيه﴾[1] تتحدث عن حقيقة قائمة، عن واقع موضوعي ثابت، فهي ليست بصدد ان تدعو الناس الى أن يسيروا في طريق الله سبحانه وتعالى، ليست بصدد الطلب والتحريك كما هو الحال في آيات أخرى في مقامات وسياقات قرآنية أخرى.

الآية الكريمة لا تقول يا أيها الناس تعالوا الى سبيل الله، توبوا الى الله، بل تقول ﴿يا أيُّها الإنسانُ انَّكَ كادحٌ إلى ربِّكَ كدحاً فَمُلاقيه﴾، لغة الآية لغة التحدث عن واقع ثابت وحقيقة قائمة وهي أن كل سير وكل تقدم للانسان في مسيرته التاريخية الطويلة الامد، فهو تقدم نحو الله سبحانه وتعالى وسير نحو الله سبحانه وتعالى، حتى تلك الجماعات التي تمسكت بالمثل المنخفضة وبالآلهة المصطنعة واستطاعت ان تحقق لها سيراً ضمن خطوة على هذا الطريق الطويل، حتى هذه الجماعات التي يسميها القرآن

١ ـ سورة الانشقاق، الآية ٦.

بالمشركين حتى هؤلاء هم يسيرون هذه الخطوة نحو الله، هذا التقدم بقدر فاعليته وبقدر زخمه هو اقتراب نحو الله سبحانه وتعالى، لكن فرق بين تقدم مسؤول وتقدم غير مسؤول (على ما يأتي شرحه ان شاء الله)، حينما تتقدم الانسانية في هذا المسار واعية على المثل الاعلى وعياً موضوعياً يكون التقدم تقدماً مسؤولاً، يكون عبادة بحسب لغة الفقه، لوناً من العبادة يكون لهم امتداد على الخط الطويل وانسجام مع الوضع العريض للكون، وأما حينما يكون التقدم منفصلاً عن الوعي على ذلك المثل فهو تقدم على أي حال، سير نحو الله على أي حال، ولكنه تقدم غير مسؤول على ما يأتي تفصيله.

اذن كل تقدم هو تقدم نحو الله، حتى اولئك الذين ركضوا وراء سراب كما تحدثت الآية الكريمة فإن هؤلاء الذين يركضون وراء السراب الاجتماعي، وراء المثل المنخفضة، هؤلاء حينما يصلون الى هذا السراب لا يجدون شيئاً، ويجدون الله سبحانه وتعالى فيوفيهم حسابهم كما تتحدث الآية الكريمة التي قرأناها فيما سبق.

والله سبحانه وتعالى هو نهاية هذا الطريق ولكنه ليس نهاية جغرافية ليس نهاية على نمط النهايات الجغرافية للطريق الممتدة مكانياً.

كربلاء مثلاً نهاية طريق ممتد بين النجف وكربلاء، كربلاء بمعناها المكاني نهاية جغرافية، ومعنى أنها نهاية جغرافية أنها موجودة على آخر الطريق، ليست موجودة على طول الطريق، لو أن انساناً سار نحو كربلاء ووقف في نصف الطريق لا يحصل على شيء من كربلاء، لا يحصل على حفنة من تراب كربلاء اطلاقاً، لأن كربلاء نهاية جغرافية موجودة في آخر

الطريق، ولكن الله سبحانه وتعالى ليس نهاية على نمط النهايات الجغرافية، الله سبحانه وتعالى هو المطلق، هو المثل الاعلى، أي المطلق الحقيقي العيني، وبحكم كونه هو المطلق، اذن هو موجود على طول الطريق ايضاً، ليس هناك فراغ منه، ليس هناك انحسار عنه، ليس هناك حد له، الله سبحانه وتعالى هو نهاية الطريق ولكنه موجود ايضاً على طول الطريق، من وصل الى نصف الطريق، من وصل الى سرابه، فتوقف واكتشف انه سراب، ماذا يجد؟ ماذا وجد في الآية؟.. وجد الله فوفّاه الله حسابه لأن المطلق موجود على طول الطريق، وبقدر زخم الطريق وبقدر التقدم في الطـريق يـجد الانسان مثله الاعلى، يلقى الله سبحانه وتعالى اينما توقف بحجم سيره، وبحجم تقدمه على هذا الطريق.

وبحكم أن الله سبحانه وتعالى هو المطلق اذن الطريق ايضاً لا ينتهي، هذا الطريق طريق الانسان نحو الله هو اقتراب مستمر بقدر التقدم الحقيقي نحو الله، ولكن هذا الاقتراب يبقى اقتراباً نسبياً، يبقى مجرد خطوات على الطريق من دون أن يُجتاز هذا الطريق، لأن المحدود لا يصل الى المطلق، الكائن المتناهي لا يمكن ان يصل الى اللا متناهي، فالفسحة الممتدة بين الانسان وبين المثل الاعلى هنا، فسحة لا متناهية، أي انه ترك له مجال الابداع الى اللا نهاية، مجال التطور التكاملي الى اللا نهاية، بـاعتبار أن الطريق الممتد طريق لا نهائي. وهذا المثل الاعلى الحقيقي حينما تتبناه المسيرة الانسانية وتوفق بين وعيها البشري والواقع الكوني الذي يفترض هذا المثل الاعلى حقيقة قائمة كما افترضته الآية، المسيرة الانسانية حينما توفق بين وعيها على المسيرة وبين الواقع الكوني لهذه المسيرة بوصفها

سائرة ومتجهة نحو الله، سوف يحدث تغيير كمي وكيفي على هذه المسيرة، هذه الحركة سوف يحدث فيها تغيير كمي وكيفي.

أما التغيير الكمي على هذه الحركة فهو باعتبار ما أشرنا اليه من أن الطريق حينما يكون طريقاً الى المثل الاعلى الحق يكون طريقا غير متناهٍ، أي أن مجال التطور والابداع والنمو قائم أبداً ودائماً، ومفتوح للانسان باستمرار من دون توقف، هذا المثل الاعلى حينما يتبنى سوف تمسح من الطريق كل الآلهة المزورة، كل الاصنام وكل الاقزام المتصنّمة على طريق الانسان التي تقف عقبة بين الانسان وبين وصوله الى الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا كان دين التوحيد صراعاً مستمراً مع مختلف اشكال الآلهة والمثل المنخفضة والتكرارية التي حاولت ان تحدد من كمية الحركة، من ان توصل الحركة الى نقطة ثم تقول قف أيها الانسان. هذه الآلهة التي ارادت أن توقف الانسان في وسط الطريق، وفي نقطة معينة كان دين التوحيد على مر التاريخ هو حامل لواء المعركة ضدها، هذا المثل الاعلى اذن سوف يُحدث تغييرا كمياً على الحركة لأنه يطلقها من عقالها، يطلقها من هذه الحدود المصطنعة لكي تسير باستمرار.

وأما التغيير الكيفي الذي يحدثه المثل الاعلى على هذه المسيرة فهذا التغيير الكيفي هو اعطاء الحل الموضوعي الوحيد للجدل الانساني للتناقض الإنساني، اعطاء الشعور بالمسؤولية الموضوعية لدى الانسان، الانسان من خلال ايمانه بهذه المثل الاعلى ووعيه على طريقه بحدوده الكونية الواقعية من هذا الوعي ينشأ بصورة موضوعية، شعور معمق لديه بالمسؤولية تجاه هذا المثل الاعلى، لأول مرة في تاريخ المثل البشرية التي

حركت البشر على مر التاريخ.

لماذا؟

لأن هذا المثل الاعلى حقيقة وواقع عيني منفصل عن الانسان وبهذا يعطي للمسؤولية شرطها المنطقي، فإن المسؤولية الحقيقية لا تقوم إلّا بين جهتين: مسؤول، ومسؤول لديه. اذا لم يكن هناك جهة أعلى من هذا الكائن المسؤول واذا لم يكن هذا الكائن المسؤول مؤمناً بأنه بين يدي جهة أعلى، لا يمكن ان يكون شعوره بالمسؤولية شعوراً موضوعياً، شعوراً حقيقياً.

مثلاً تلك المثل المنخفضة، تلك الآلهة، تلك الاقزام المتعملقة على مرِّ التاريخ، على مرِّ المسيرة البشرية هي في الحقيقة لم تكن كما رأينا وكما حللنا إلّا افرازاً بشرياً، الّا انتاجاً انسانياً، يعني أنها جزء من الانسان، جزء من كيان الانسان، والانسان لا يمكن ان يستشعر بصورة موضوعية حقيقية، المسؤولية تجاه ما يفرزه، هو اتجاه ما يصنعه هو ﴿انْ هيَ إلّا أسماءٌ سمَّيتموها﴾[1]، تلك المثل لا تصنع الشعور الموضوعي بالمسؤولية، نعم قد تصنع قوانين، قد تصنع عادات، قد تصنع أخلاقاً، ولكنها كلها غطاء ظاهري، وكلما وجد هذا الانسان مجالاً للتحلل من هذه العادات، ومن هذه الاخلاق، ومن هذه القوانين فسوف يتحلل.

بينما المثل الاعلى لدين التوحيد، للانبياء على مرّ التاريخ باعتباره

---

١ ـ سورة النجم، الآية ٢٣.

واقعاً عينياً منفصلاً عن الانسان، باعتباره جهة اعلى من الانسان ليست افرازاً بشرياً، ليست انتاجاً انسانياً، اذن سوف يتوصل للشعور بالمسؤولية، شرطه الموضوعي في المقام، لماذا كان الأنبياء على مر التاريخ أصلب الثوار على الساحة التاريخية؟ انظف الثوار على الساحة التاريخية؟ لماذا كانوا على الساحة التاريخية فوق كل مساومة، فوق كل مهادنة، فوق كل تململ يمنة أو يسرة؟ لماذا كانوا هكذا؟ لماذا انهار كثير من الثوار على مر التاريخ ولم يسمع أن نبياً من انبياء التوحيد انهار أو تململ او انحرف يمنة أو يسرة عن الرسالة التي بيده وعن الكتاب الذي يحمله من السماء؟

لأن المثل الاعلى المنفصل عنه الذي هو فوقه الذي اعطاه نفحة موضوعية من الشعور بالمسؤولية، وهذا الشعور بالمسؤولية تجسد في كل كيانه، في كل مشاعره وافكاره وعواطفه.

ومن هنا كان النبي معصوماً على مر التاريخ.

اذن هذا المثل الاعلى بحسب الحقيقة يحدث تغييراً كيفياً على المسيرة لأنه يعطي الشعور بالمسؤولية، وهذا الشعور بالمسؤولية ليس أمراً عرضياً، ليس أمراً ثانوياً في مسيرة الانسان، بل هذا شرط أساسي في امكان انجاح هذه المسيرة وتقديم الحل الموضوعي للتناقض الانساني، للجدل الانساني، لأن الانسان يعيش تناقضاً، الإنسان بحسب تركيبه وخلقته يعيش تناقضاً، لأنه هو تركيب من حفنة من تراب ونفحة من روح الله سبحانه وتعالى كما وصفت ذلك الآيات الكريمة.

الآيات الكريمة قالت بأن الانسان خلق من تراب، وقالت بأنه نفخ فيه

من روحه سبحانه وتعالى.

اذن فهو مجموع نقيضين اجتمعا والتحما في الانسان، حفنة التراب تجره الى الارض، تجره الى الشهوات، الى الميول، تجره الى كل ما ترمز اليه الارض من انحدار وانحطاط، وروح الله سبحانه وتعالى التي نفخها فيه تجره الى أعلى، تتسامى بانسانيته الى حيث صفات الله، الى حيث اخلاق الله، تخلقوا بأخلاق الله، الى حيث العلم الذي لا حد له والقدرة التي لا حد لها، الى حيث العدل الذي لا حد له، الى حيث الجود والرحمة والانتقام، الى حيث هذه الاخلاق الالهية، هذا الانسان واقع في تيار هذا التناقض، في تيار هذا الجدل بحسب محتواه النفسي، بحسب تركيبه الداخلي، هذا الجدل وهذا التناقض الذي احتوته طبيعة الانسان وشرحته قصة آدم على ما يأتي إن شاء الله تعالى، هذا الجدل الانساني له حل واحد فقط، هذا الحل الواحد الذي يمكن ان يوضع لهذا التناقض هو الشعور بالمسؤولية، لكن لا الشعور المنبثق عن نفس هذا الجدل، فإن الشعور المنبثق عن نفس هذا الجدل، لا يحل هذا الجدل، هو ابن الجدل بل هو افراز هذا التناقض، وانما الشعور الموضوعي بالمسؤولية لا يكفله إلّا المثل الاعلى الذي يكون جهة عليا، يحس الانسان من خلالها بأنه بين يدي رب قادر سميع بصير محاسب مجاز على الظلم، مجاز على العدل.

اذن هذا الشعور الموضوعي بالمسؤولية الذي هو التغيير الكيفي على المسيرة هو في الحقيقة الحل الوحيد للتناقض وللجدل الذي تستبطنه طبيعة الانسان وتركيب الانسان.

دور دين التوحيد اذن هو عبارة عن تعبيد هذا الطريق الطويل الطويل،

تعبيده، ازالة العوائق من خلال تنمية الحركة كمياً وكيفياً، محاربة تلك المثل المصطنعة والمنخفضة والتكرارية التي تريد ان تجمد الحركة من ناحية، أن تعريها من الشعور بالمسؤولية من ناحية اخرى، ومن هنا كان حرب الانبياء كما اشرنا، كان حرب الانبياء مع الآلهة المصطنعة على مرّ التاريخ.

ولما كان كل مثل من هذه المثل العليا التي تتحول الى تمثال ضمن ظروف تطورها بالشكل الذي شرحناه فيما سبق، حينما تتحول الى تمثال تجد في مجموعة من الناس، تجد فيهم مدافعين طبيعيين عنها باعتبار ان مجموعة من الناس ترتبط مصالحهم، ترفهم، كيانهم المادي والدنيوي ببقاء هذا المثال الذي تحول الى تمثال ولهذا يقف دائماً هؤلاء الذين يرتبطون مصلحياً بهذا التمثال، يقفون دائماً في وجه الانبياء ليدافعوا عن مصالحهم، عن دنياهم، عن ترفهم.

ومن هنا أبرز القرآن الكريم سنة من سنن التاريخ وهي ان الانبياء دائماً كانوا يواجهون المترفين من مجتمعاتهم كقطب آخر في المعارضة مع هذا النبي لأن هذا المترف المستفيد من هذا المثال بعد ان تحول الى التمثال، هذا المثال تحول الى تمثال فمن هو المستفيد منه؟ المستفيد منه المترفون في ذلك المجتمع، المنعَّمون على حساب الناس الذين يجعلون من هذا التمثال مبرراً لوجودهم، من هنا يكون من الطبيعي أنّ هؤلاء المترفين وهؤلاء المستفيدين نجدهم دائماً في الخط المعارض للانبياء، ﴿وكذلكَ ما أرسلنا مِنْ قبلكَ في قريةٍ مِنْ نذيرٍ إلّا قال مُترفُوها إنّا وجدْنا آباءَنا على أُمّةٍ وإنّا على

آثارِهِم مُقْتَدونَ﴾[1].

﴿وَما أرسلنا في قريةٍ مِنْ نذيرٍ إلّا قالَ مُترفُوها إنّا بما أُرسلتُم به كافرونَ﴾[2].

﴿سأصرفُ عن آياتي الَّذينَ يتكبَّرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ وإن يَروا كُلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها، وإنْ يَروا سبيلَ الرشدِ لا يتخذُوه سبيلاً، وإن يَروا سبيل الغيِّ يتخذوه سبيلاً ذلك بأنَّهُم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلينَ﴾[3].

﴿وقال الملأُ من قَومِهِ الَّذينَ كفروا وكذّبوا بلقاءِ الآخرةِ وأترفناهُمْ في الحياةِ الدُّنيا ما هذا إلّا بشرٌ مِثلُكُم يأكُلُ مما تأكُلُونَ منه ويشربُ ممّا تشرَبونَ﴾[4].

اذن دين التوحيد هو الذي يستأصل مصالح هؤلاء المترفين بالقضاء على آلهتهم وعلى مثلهم التي تحولت الى تماثيل، يقطع صلة البشرية بهذه المثل العليا المنخفضة ولكنه لا يقطع صلتها بهذه المثل العليا المنخفضة لكي يطأ برأسها في التراب، لكي يحولها الى كومة مادية ليس لها اشواق، ليس لها طموحات، ليس لها تطلعات الى أعلى كما هو شأن الثوار الماديين الذين يستلهمون من المادية التأريخية ومن الفهم المادي للتاريخ، اولئك ايضاً يحاربون هذه الآلهة المصطنعة ويسمون هذه الآلهة المصطنعة بأنها أفيون

---

١ ـ سورة الزخرف، الآية ٢٣.

٢ ـ سورة سبأ، الآية ٣٤.

٣ ـ سورة الاعراف، الآية ١٤٦.

٤ ـ سورة المؤمنون، الآية ٣٣.

الشعوب، ونحن ايضاً نحارب هذه الآلهة المصطنعة ولكننا نحن نحارب هذه الآلهة المصطنعة لا لكي نحول الانسان الى حيوان، لا لكي نقطع صلة الانسان بأشواقه العليا، لا لكي نحول مسار الانسان من أعلى الى أسفل، وانما نقطع صلة الانسان بهذه المثل المنخفضة لكي نشده الى المثل الاعلى، لكي نشده الى الله سبحانه وتعالى.

وتبني المسيرة البشرية لهذا المثل الاعلى الحق الذي يحدث هذه التغييرات الكيفية والكمية على اتجاه المسيرة وحجمها، تبني المسيرة البشرية لهذا المثل يتوقف على عدة أمور:

أولاً: على رؤية واضحة فكرياً وايديولوجياً لهذا المثل الاعلى، وهذه الرؤية الواضحة لهذا المثل الاعلى هي التي تقدمه عقيدة التوحيد على مرّ التاريخ، عقيدة التوحيد التي تنطوي على الايمان بالله سبحانه وتعالى، التي توحد بين كل المثل، بين كل الغايات، كل الطموحات، كل التطلعات البشرية، توحد بينها في هذا المثل الاعلى الذي هو علم كله، قدرة كله، عدل كله، رحمة كله، انتقام من الجبارين. هذا المثل الاعلى الذي تتوحد فيه كل الطموحات وكل الغايات، هذا المثل الاعلى تعطينا عقيدة التوحيد رؤية واضحة له، تعلمنا على ان نتعامل مع صفات الله واخلاق الله لا بوصفها حقائق عينية منفصلة عنا كما يتعامل فلاسفة الاغريق، وانما نتعامل مع هذه الصفات والاخلاق بوصفها رائداً عملياً، بوصفها هدفاً لمسيرتنا العملية، بوصفها مؤشرات على الطريق الطويل للانسان نحو الله سبحانه وتعالى.

عقيدة التوحيد هي التي توفر هذا الشرط الاول: الرؤية الواضحة فكرياً وايديولوجياً للمثل الاعلى.

ثانياً: لا بد من طاقة روحية مستمدة من هذا المثل الاعلى لكي تكون هذه الطاقة الروحية رصيداً ووقوداً مستمراً للارادة البشرية على مرِّ التاريخ، هذه الطاقة الروحية، هذا الوقود الذي يستمد من الله سبحانه وتعالى يتمثل في عقيدة يوم القيامة، في عقيدة الحشر والامتداد، عقيدة يوم القيامة تعلم الانسان ان هذه الساحة التاريخية الصغيرة التي يلعب عليها الانسان مرتبطة ارتباطاً مصيرياً بساحات برزخية وبساحات حشرية في عالم البرزخ والحشر، وان مصير الانسان على تلك الساحات العظيمة الهائلة مرتبط بدوره على هذه الساحة التاريخية. هذه العقيدة تعطي تلك الطاقة الروحية، ذلك الوقود الرباني الذي ينعش ارادة الانسان ويحفظ له دائماً قدرته على التجديد والاستمرار.

ثالثاً: ان هذا المثل الاعلى الذي تحدثنا عنه يختلف عن المثل العليا الاخرى التكرارية والمنخفضة التي تحدثنا عنها سابقاً، على أساس ان هذا المثل منفصل عن الانسان، ليس جزءاً من الانسان، ليس من افراز الانسان، بل هو منفصل عن الإنسان، هو واقع عيني قائم هناك، قائم في كل مكان وليس جزءاً من الانسان، هذا الانفصال يفرض وجود صلة موضوعية بين الانسان وهذا المثل الاعلى. لا بد من صلة موضوعية بين هذا الإنسان وهذا المثل الاعلى، بينما المثل الاخرى السابقة كانت انسانية، كانت افرازاً بشرياً لا حاجة الى افتراض صلة موضوعية، نعم هناك طواغيت وفراعنة على مر التاريخ نصبوا من انفسهم صلات موضوعية بين البشرية وبين آلهة الشمس، وآلهة الكواكب، ولكنها صلة موضوعية مزيفة لأن الإله هناك كان وهما، كان وجوداً ذهنياً، كان افرازاً انسانياً، اما هنا

المثل الاعلى منفصل عن الانسان ولهذا كان لابد من صلة موضوعية تربط هذا الانسان بذلك المثل الاعلى.

وهذه الصلة الموضوعية تتجسد في النبي في دور النبوة، فالنبي هو ذلك الانسان الذي يركب بين الشرط الاول والشرط الثاني بأمر الله سبحانه وتعالى، بين رؤية ايديولوجية واضحة للمثل الاعلى وطاقة روحية مستمدة من الايمان بيوم القيامة، يركب بين هذين العنصرين ثم يجسد بدور النبوة، الصلة بين المثل الاعلى والبشرية ليحمل هذا المركب الى البشرية بشيرا ونذيراً، هذا ثالثاً.

ورابعاً: البشرية بعد ان تدخل مرحلة يسميها القرآن مرحلة الاختلاف على ما يأتي ان شاء الله شرحه في الدروس القادمة سوف لن يكفي مجيء البشير النذير لأن مرحلة الاختلاف تعني مرحلة انتصاب تلك المثل المنخفضة او التكرارية، تعني وجود تلك الآلهة المزورة على الطريق، وجود تلك الحواجب والعوائق عن الله سبحانه وتعالى، اذن لا بد للبشرية من ان تخوض معركة ضد الآلهة المصطنعة، ضد تلك الطواغيت والمثل المنخفضة التي تنصب من نفسها قيّماً على البشرية وحاجزاً وقاطع طريق بالنسبة للمسيرة التاريخية، لا بد من معركة ضد هذه الآلهة، ولا بد من قيادة تتبنى هذه المعركة، وهذه القيادة هي الامامة، هي دور الامامة، الامام هو القائد الذي يتولى هذه المعركة. ودور الامامة يندمج مع دور النبوة في مرحلة من النبوة يتحدث عنها القرآن وسوف نتحدث عنها إن شاء الله تعالى ونقول بأنها بدأت في أكبر الظن مع نوح عليه الصلاة والسلام، ودور الامامة يندمج مع دور النبوة ولكنه يمتد حتى بعد النبي اذا ترك النبي الساحة

وبعدُ لا تزال المعركة قائمة ولا تزال الرسالة بحاجة الى مواصلة هذه المعركة من أجل القضاء على تلك الآلهة حينئذ يمتد دور الامامة بعد انتهاء النبي.

هذا هو الشرط الرابع في تبني المسيرة البشرية لهذا المثل الاعلى.

على هذا الضوء سوف نكوِّن رؤية واضحة لما نسميه باصول الدين الخمسة، سوف تقع اصول الدين الخمسة في موقعها الطبيعي، في موقعها الصحيح السليم من مسار الانسان، اصول الدين الخمسة: التوحيد: هو الذي يعطي الشرط الأول، هو الذي يعطي الرؤية الواضحة فكرياً وايديولوجياً، هو الذي يجمع ويعبئ كل الطموحات وكل الغايات في مثل أعلى واحد وهو الله سبحانه وتعالى.

العدل: العدل هو جانب من التوحيد ولكن انما فصل، العدل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى حال العدل، حال العلم، حال القدرة، لا يوجد ميزة عقائدية في العدل في مقابل العلم، في مقابل القدرة ولكن الميزة هنا ميزة اجتماعية، ميزة القدوة، لأن العدل هو الصفة التي تعطي للمسيرة الاجتماعية وتغني المسيرة الاجتماعية والتي تكون المسيرة الاجتماعية بحاجة اليها اكثر من أي صفة اخرى، أبرز العدل هنا كأصل ثاني من اصول الدين باعتبار المدلول التوجيهي، باعتبار المدلول التربوي لهذه الصفة، قلنا بأن صفات الله واخلاق الله علَّمنا الاسلام على ان لا نتعامل معها كحقائق عينية ميتافيزيقية فوقنا لا صلة لنا بها وانما نتعامل معها كمؤشرات وكمنارات على الطريق، اذن من هنا كان العدل له مدلوله الاكبر بالنسبة الى توجيه المسيرة البشرية، ولاجل ذلك أفرز. وإلّا العدل في الحقيقة هو

داخل في اطار التوحيد العام، في اطار المثل الاعلى.

الاصل الثالث النبوة: النبوة هي التي توفر الصلة الموضوعية بين الانسان وما بين المثل الاعلى، المسيرة البشرية كما قلنا حينما تبنت المثل الاعلى الحق المنفصل عنها الذي هو ليس من افرازها ومن انتاجها المنخفض كانت بحاجة الى صلة موضوعية، هذه الصلة الموضوعية يجسدها النبي ﷺ، النبي على مر التاريخ، الانبياء صلوات الله عليهم هم الذين يجسدون هذه الصلة الموضوعية.

الامامة: الامامة هي في الحقيقة تلك القيادة التي تندمج مع دور النبوة، النبي امام ايضاً، النبي نبي، والنبي امام ولكن الامامة لا تنتهي بانتهاء النبي، اذا كانت المعركة قائمة واذا ما كانت الرسالة لا تزال بحاجة الى قائد يواصل المعركة، اذن سوف يستمر هذا الجانب من دور النبي من خلال الامامة. فالامامة هو الأصل الرابع من أصول الدين.

والأصل الخامس هو الايمان بيوم القيامة: هو الذي يوفر الشرط الثاني من الشروط الاربعة التي تقدمت، هو الذي يعطي تلك الطاقة الروحية، ذلك الوقود الرباني الذي يجدد دائماً ارادة الانسان وقدرة الانسان، ويوفر الشعور بالمسؤولية والضمانات الموضوعية.

اذن اصول الدين في الحقيقة وبالتعبير التحليلي على ضوء ما ذكرناه هي كلها عناصر تساهم في تركيب هذا المثل الاعلى وفي اعطاء تلك العلاقة الاجتماعية، بصيغتها القرآنية الرباعية التي تحدثنا عنها قبل ايام، كنا نقول، ماذا كنا نقول قبل أيام؟ بأن القرآن الكريم طرح العلاقة الاجتماعية ذات

اربعة ابعاد لا ذات ثلاثة ابعاد، طرحها بصيغة الاستخلاف وشرحنا في ما سبق صيغة الاستخلاف، وقلنا بأن الاستخلاف يفترض أربعة ابعاد، يفترض انساناً وانساناً وطبيعة والله سبحانه وتعالى وهو المستخلف. هذه الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية هي التعبير الآخر عن صيغة تدمج اصول الدين الخمسة في مركب واحد من أجل ان يسير الانسان ويكدح نحو الله سبحانه وتعالى في طريقه الطويل.

بما ذكرناه توضح دور الانسان في المسيرة التاريخية، توضح ان الانسان هو مركز الثقل في المسيرة التاريخية، وتوضح ان الإنسان هو مركز الثقل لا بجسمه الفيزيائي وانما بمحتواه الداخلي، وهذا المحتوى الداخلي توضح ايضاً من خلال ما شرحناه، ان الاساس في بناء هذا المحتوى الداخلي هو المثل الاعلى الذي يتبناه الإنسان، لأن المثل الاعلى هو الذي تنبثق منه كل الغايات التفصيلية، والغايات التفصيلية هي المحركات التاريخية للنشاطات على الساحة التاريخية.

اذن بناء المثل الاعلى وتبني المثل الاعلى هو في الحقيقة الاساس في بناء المحتوى الداخلي للانسان ومن هنا ظهر دور هذا البعد الرابع.

عناصر المجتمع
في القرآن الكريم (٥)[١]

تقدم في تحليل عناصر المجتمع، ان المجتمع يتكون من ثلاثة عناصر، وهي: الانسان والطبيعة والعلاقة الاجتماعية، وقد تحدثنا عن الإنسان ودوره الاساسي في الحلقة التاريخية، وتحدثنا عن الطبيعة وشأنها على الساحة التاريخية، وبقي علينا ان نأخذ العنصر الثالث وهو: العلاقة الاجتماعية لنحدد موقفنا من هذه العلاقة الاجتماعية على ضوء ما انتهينا اليه من مواقف قرآنية تجاه دور الإنسان والطبيعة على الساحة التاريخية.

العنصر الثالث هو العلاقة الاجتماعية، وقد تقدم ان العلاقة الاجتماعية تتضمن علاقتين مزدوجتين: إحداهما علاقة الانسان مع الطبيعة. والأخرى علاقة الانسان مع أخيه الانسان. هذان خطان من العلاقة الاجتماعية، وهذان الخطان نؤمن بأن كل واحد منهما مختلف عن الآخر ومستقل استقلالاً نسبياً عن الآخر مع شيء من التفاعل والتأثير المتبادل المحدود الذي سوف نشرحه بعد ذلك ان شاء الله تعالى، من حيث الاساس، هذان

١ ـ الدرس الثاني عشر، يوم الأربعاء ٢٥/ ج ٢/ ١٣٩٩ هـ.

الخطان احدهما مختلف عن الآخر، ومستقل استقلالاً نسبياً عنه تبعاً للاختلاف النوعي في طبيعة المشكلة التي يواجهها كل واحد من هذين الخطين ونوع الحل الذي ينسجم مع طبيعة تلك المشكلة.

فالخط الاول الذي يمثل علاقات الانسان مع الطبيعة من خلال استثمارها ومحاولة تطويعها وانتاج حاجاته الحياتية منها. هذا الخط يواجه مشكلة وهي مشكلة التناقض بين الانسان والطبيعة، وهذا التناقض بين الإنسان والطبيعة، يعني تمرد الطبيعة وتعصيها عن الاستجابة للطلب الإنساني وللحاجة الانسانية من خلال التفاعل ما بينهما، هذا التناقض بين الانسان والطبيعة هو المشكلة الرئيسية على هذا الخط، وهذا التناقض له حل مستمد من قانون موضوعي يمثل سنة من سنن التاريخ الثابتة، وهذا القانون هو قانون التأثير المتبادل بين الخبرة والممارسة، ذلك لأن الانسان كلما تضاءل جهله بالطبيعة وكلما ازدادت خبرته بلغتها وبقوانينها ازداد سيطرة عليها وتمكُّناً من تطويعها وتذليلها لحاجاته، وحيث ان كل خبرة هي تتولد في هذا الحقل عادة من الممارسة، وكل ممارسة تولّد بدورها خبرة، ولهذا كان قانون التأثير المتبادل بين الخبرة والممارسة قانوناً موضوعياً يكفل حل هذا التناقض، يقدم الحل المستمر والمتنامي لهذا التناقض بين الانسان والطبيعة، اذ يتضاءل جهل الانسان باستمرار وتنمو معرفته باستمرار من خلال ممارسته للطبيعة، يكتسب خبرة جديدة، هذه الخبرة الجديدة تعطيه سيطرة على ميدان جديد من ميادين الطبيعة، فيمارس على الميدان الجديد، وهذه الممارسة بدورها ايضاً تتحول الى خبرة، وهكذا تنمو الخبرة الانسانية باستمرار ما لم تقع كارثة كبرى طبيعية أو بشرية.

وهذا القانون بنموه وبتطبيقاته التاريخية يعطي الحلول التدريجية لهذه المشكلة، فهي مشكلة محلولة تاريخياً ومحلولة موضوعياً، ولعل في الآية الكريمة ﴿وآتاكُمْ مِن كُلِّ ما سألتموهُ، وإنْ تعُدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحْصوها﴾[1] لعل في الآية الكريمة اشارة الى هذا الحل الموضوعي المستمد من قانون التأثير المتبادل بين الخبرة والممارسة لأن السؤال في الآية الكريمة ﴿وآتاكُم من كُلِّ ما سألتموه﴾ لا يراد منه الدعاء طبعاً، السؤال اللفظي الذي هو الدعاء، لأن الآية تتكلم عن الانسانية ككل عمّن يؤمن بالله ومن لا يؤمن بالله، من يدعو الله ومن لا يدعو الله، كما ان الدعاء لا يتضمن حتماً تحصيل الشيء المدعو به، نعم كل دعاء له استجابة، لكن ليس لكل دعاء تحقيق لما تعلق به الدعاء، بينما هنا يقول ﴿وآتاكُم من كُلِّ ما سألتموه﴾ هنا إيتاء، استجابة فعلية بعطاء ما سئل عنه، فأكبر الظن ان هذا السؤال من الانسانية ككل وعلى مرّ التاريخ وعبر الماضي والحاضر والمستقبل يتمثل في السؤال الفعلي والطلب التكويني الذي يحقق باستمرار التطبيقات التاريخية لقانون التأثير المتبادل بين الخبرة والممارسة، هذه هي المشكلة التي يواجهها الخط الاول من العلاقات، وهذا هو الحل الذي يوضع لهذه المشكلة.

واما الخط الثاني من العلاقات، علاقات الانسان مع اخيه الانسان في مجال توزيع الثروة أو في سائر الحقول الاجتماعية أو في أوجه التفاعل الحضاري بين الانسان واخيه الانسان، فهذا الخط يواجه مشكلة اخرى، ليست المشكلة هنا هي التناقض بين الانسان والطبيعة بل هي التناقض

---

١ ـ سورة ابراهيم، الآية ٣٤.

الاجتماعي بين الانسان واخيه الانسان. وهذا التناقض الاجتماعي بين الانسان واخيه الانسان يتخذ على الساحة الاجتماعية صيغاً متعددة والواناً مختلفة ولكنه يظل في حقيقته وجوهره، يظل شيئاً ثابتاً وحقيقة واحدة وروحاً عامة وهي التناقض ما بين القوي والضعيف، بين كائن في مركز القوة وكائن في مركز الضعف، هذا الكائن الذي هو في مركز القوة اذا لم يكن قد حل تناقضه الخاص، جدله الانساني من الداخل فسوف يفرز لا محالة صيغة من صيغ التناقض الاجتماعي، ومهما اختلفت الصيغة في مضمونها القانوني وفي شكلها التشريعي وفي لونها الحضاري فهي بالآخرة صيغة من صيغ التناقض بين القوي والضعيف، قد يكون هذا القوي فرداً فرعونا، قد يكون عصابة، قد يكون طبقة، قد يكون شعباً، قد يكون امة، كل هذه الوان من التناقض كلها تحتوي روحاً واحدة وهي روح الصراع، روح الاستغلال من القوي الذي لم يحل تناقضه الداخلي وجدله الانساني، الصراع بينه وبين الضعيف ومحاولة استغلال هذا الضعيف.

هذه اشكال متعددة من التناقض الاجتماعي الذي يواجهه خط العلاقات بين الانسان واخيه الانسان وهذه الاشكال المتعددة ذات الروح الواحدة كلها تنبع من معين واحد، من تناقض رئيسي واحد، وهو ذلك الجدل الانساني الذي شرحناه القائم بين حفنة التراب وبين اشواق الله سبحانه وتعالى.

ما لم ينتصر أفضل النقيضين في ذلك الجدل الانساني فسوف يظل هذا الانسان يفرز التناقض تلو التناقض والصيغة بعد الصيغة حسب الظروف والملابسات، حسب الشروط الموضوعية ومستوى الفكر والثقافة، اذن

النظرة الاسلامية من زاوية المشكلة التي يواجهها خط العلاقات بين الانسان واخيه الانسان، نظرة واسعة، منفتحة، معمقة، لا تقتصر على لون من التناقض، ولا تهمل ألواناً أخرى من التناقض، بل هي تستوعب كل أشكال التناقض على مرّ التاريخ وتنفذ الى عمقها وتكشف حقيقتها الواحدة، وروحها المشتركة، ثم تربط كل هذه التناقضات، تربطها بالتناقض الاعمق، بالجدل الانساني.

ومن هنا يؤمن الاسلام بأن الرسالة الوحيدة القادرة على حل هذه المشكلة التي يواجهها خط علاقات الانسان مع الانسان، هي تلك الرسالة التي تعمل على مستويين في وقت واحد، تعمل من أجل تصفية التناقضات الاجتماعية على الساحة لكن في نفس الوقت وقبل ذلك وبعد ذلك تعمل من أجل تصفية ذلك الجدل في المحتوى الداخلي للانسان من أجل تجفيف منبع تلك التناقضات الاجتماعية، ويؤمن الاسلام بأن ترك ذلك المعين من الجدل والتناقض على حاله والاشتغال بتصفية التناقضات على الساحة الاجتماعية بصيغها التشريعية فقط، هذا نصف العملية، النصف المبتور من العملية، اذ سرعان ما يفرز ذلك المعين صيغاً أخرى وفق هذه العملية التي سوف تستأصل بها الصيغ السابقة.

فلا بد للرسالة التي تريد أن تضع الحل الموضوعي للمشكلة ان تعمل على كلا المستويين، أن تؤمن بجهادين: جهاد اكبر سمّاه الاسلام «بالجهاد الاكبر» وهو الجهاد لتصفية ذلك التناقض الرئيسي، لحل ذلك الجدل الداخلي. وجهاد آخر، جهاد في وجه كل صيغ التناقض الاجتماعي، في وجه كل الوان استئثار القوي للضعيف من دون أن نحصر أنفسنا في نطاق

صيغة معينة من صيغ هذا الاستئثار، لأن الاستئثار جوهره واحد مهما اختلفت صيغه.

هذه هي النظرة المنفتحة الواقعية التي اثبتت التجربة البشرية باستمرار، انطباقها على واقع الحياة خلافاً للنظرة الضيقة التي فسرت بها المادية والثوار الماديون التي فسروا بها التناقض. فإن ماركس على الرغم من ذكائه الفائق إلّا انه لم يستطع ان يتجاوز حدود النظرة التقليدية للإنسان الاوروبي، كان بحكم كونه فرداً أوروبياً، كان رهين هذه النظرة التقليدية. الانسان الاوروبي دائماً يرى العالم ينتهي حيث تنتهي الساحة الاوروبية أو الساحة الغربية بتعبير أعم كما يعتقد اليهود بأن الانسانية هي كلها في اطارهم **﴿ليسَ علينا في الأُميين سبيلٌ﴾**[1] أولئك ليسوا بشراً، ليسوا أناساً، أولئك أميون، همج، كذلك الانسان الاوروبي اعتاد أن يضع الدنيا كلها في اطار ساحته الاوروبية، في ساحته الغربية، لم يتخلص هذا الرجل من تقاليد هذه النظرة الاوروبية، كما انه لم يتخلص من هيمنة العامل الطبقي الذي لعب دوراً في افكار المادية التاريخية.

ومن هنا جاء لنا بتفسير محدود ضيق للتناقض الذي تواجهه الانسانية على هذا الخط، إعتقد بأن مرد كل التناقضات على الساحة البشرية الى تناقض واحد، وهو التناقض الطبقي، التناقض بين طبقة تملك كل وسائل الانتاج أو معظم وسائل الانتاج، وطبقة لا تملك شيئاً من وسائل الانتاج وانما تعمل من أجل مصالح الطبقة الاولى، تستثمر في تشغيل وسائل

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ٧٥.

الانتاج التي تملكها الطبقة الاولى، ثم هذه الثروة المنتجة التي جسدت عرق جبين هذا العامل المستغل، هذه الثروة المنتجة تستولي عليها الطبقة الاولى المالكة، ولا يعطىٰ للطبقة الثانية منها إلّا الحد الادنى، حدّ الكفاف الذي يضمن استمرار حياة هذه الطبقة، لكي تواصل خدمتها وممارستها ضمن إطار الطبقة الاولى.

هذا هو التناقض الطبقي الذي اتخذه قاعدة وأساساً لكل ألوان التناقض الاخرى، وهذا التناقض يتخذ مدلوله الاجتماعي من خلال صراع مرير بين الطبقة المالكة وما بين الطبقة العاملة، وهذا الصراع المرير بين هاتين الطبقتين ينمو ويشتد كلما تطورت الآلة، وكلما نمت الآلة الصناعية وتعقدت، وذلك لأن الآلة كلما نمت، وكلما تطورت أدت الى تخفيض في مستوى المعيشة، وهذا التخفيض في مستوى المعيشة يعطي فرصة للطبقة الرأسمالية المالكة، يعطي لها فرصة في أن تخفض أجر العامل لأنها لا تريد ان تعطي العامل أكثر مما يديم به حياته ونَفَسَه.

اذن باستمرار تتطور الآلة، باستمرار تنخفض كلفة المعيشة وباستمرار يخفِّض الرأسمالي أجرة العامل، هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية ان تطور الآلة وتعقدها يقتضي امكانية التعويض عن العدد الكبير من العمال بالعدد القليل من العمال، لأن دقة الآلة وعملقة الآلة سوف يعوض عن الجزء الآخر من العمال. وهذا يجعل الطبقة الرأسمالية تطرد الفائض من العمال باستمرار، وهكذا يشتد الصراع بين الطبقتين ويحتدم التناقض حتى ينفجر في ثورة، هذه الثورة تجسدها الطبقة العاملة تقضي بها على التناقض الطبقي في المجتمع وتوحد المجتمع في طبقة واحدة وهذه الطبقة الواحدة تمثل حينئذ

كل أفراد المجتمع، وفي حالة من هذا القبيل سوف تستأصل كل ألوان التناقض لأن أساس التناقض هو التناقض الطبقي، فاذا أزيل التناقض الطبقي زالت كل التناقضات الاخرى الفرعية والثانوية.

وهذا تلخيص سريع جداً لوجهة نظر هؤلاء الثوار تجاه التناقض الذي عالجناه.

إلّا ان هذا النظرة الضيقة لا تنسجم في الحقيقة مع الواقع ولا تنطبق على تيار الاحداث في التاريخ، ليس التناقض الطبقي وليد تطور الآلة بل هو وليد الإنسان، هو من صنع الإنسان الاوروبي، ليست الآلة هي التي صنعت استغلال الرأسمالي للعامل، ليست الآلة هي التي خلقت النظام الرأسمالي، وانما الانسان الاوروبي الذي وقعت هذه الآلة بيده أفرز نظاماً رأسمالياً يجسد قِيَمه في الحياة وتصوراته للحياة.

وليس التناقض الطبقي هو الشكل الوحيد من اشكال التناقض، هناك صيغ كثيرة للتناقض على الساحة الاجتماعية، وليس التناقض الطبقي هو التناقض الرئيسي بالنسبة الى تلك الأشكال، وإنما كل هذه الاشكال من التناقض على الساحة الاجتماعية هي وليد تناقض رئيس وهو جدل الانسان، هو الجدل المخبوء في داخل محتوى الانسان، ذاك هو التناقض الرئيس الذي يفرز دائماً وأبداً صيغاً متعددة من التناقض.

تعالوا نلاحظ ونقارن بين هذه النظرة الضيقة وبين واقع التجربة البشرية المعاصرة لنرى أي النظرتين أكثر انطباقاً على العالم الذي نعيشه، ونرى ماذا كنا نتوقع؟ ماذا كنا ننتظر؟ لو كانت هذه النظرة وكان هذا

التفسير للتناقض، لو كان صحيحاً وواقعياً، ماذا كنا ننتظر؟ وماذا كنا نتوقع؟

كنا ننتظر ونتوقع أن يزداد يوماً بعد يوم التناقض الطبقي والصراع بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة في المجتمعات الاوروبية الصناعية التي تطورت فيها الآلة تطوراً كبيراً، كان المفروض أن هذه المجتمعات كانجلترا والولايات الامريكية المتحدة وفرنسا وألمانيا أن يشتد فيها التناقض الطبقي والصراع يوماً بعد يوم، كنا نترقب ان يزداد البؤس والحرمان في جانب الطبقة العاملة ويزداد الثراء على حساب هؤلاء العاملين في طبقة الرأسماليين المستغلين من الامريكان والانجليز والفرنسيين وغيرهم، كنا نترقب حالة من هذا القبيل، كنا نترقب أن تتضاعف النقمة، أن يشتد ايمان العامل الاوروبي والعامل الامريكي بالثورة وبضرورة الثورة وبأنها هي الطريق الوحيد لتصفية هذا التناقض الطبقي، هذا ما كنا ننتظره لو صحت هذه الافكار عن تفسير التناقض.

لكن ماذا وقع خارجاً؟ ما وقع خارجاً هو عكس ذلك تماماً، نرى وبكل أسف أن النظام الرأسمالي في الدول الرأسمالية المستغلة يزداد ترسخا يوما بعد يوم ويزداد تمحوراً وعملقة يوماً بعد يوم، لا تبدو عليه بوادر الانهيار السريع، تلك التمنيات الطيبة التي تمناها ثوارنا الماديون لانجلترا وللدول الاوروبية المتقدمة صناعياً، تمنوا لها الثورة في أقرب وقت بحكم التطور الآلي والصناعي فيها، تلك التمنيات الطيبة تحولت الى سراب، بينما تحققت هذه النبوءات بالنسبة الى بلاد لم تعش تطوراً آلياً بل لم تعش تناقضاً طبقياً بالمعنى الماركسي لأنها لم تكن قد دخلت الباب العريض

الواسع للتطور الصناعي من قبيل روسيا القيصرية والصين.

من ناحية اخرى هل ازداد العمال بؤساً وفقراً؟ هل ازدادوا استغلالاً؟ لا بالعكس، العمال ازدادوا رخاءً، ازدادوا سعة، اصبحوا مدلّلين من قبل الطبقة الرأسمالية المستغلة، العامل الامريكي يحصل على ما لا يطمع به انسان آخر يشتغل بكدّ يمينه ويقطف ثمار عمله في المجتمعات الاشتراكية الاخرى، هل ازدادت النقمة لدى الطبقة العاملة؟ العكس هو الصحيح، العمال، الهيئات التي تمثل العمال في الدول الرأسمالية المستغلة تحولت بالتدريج، أكثر هذه الهيئات تحولت الى هيئات ذات طابع شبه ديمقراطي، تحولت الى اشخاص لهم حالة الاسترخاء السياسي، تركوا هموم الثورة، تركوا منطق الثورة، أصبحوا يتصافحون يداً بيد مع تلك الأيدي المستغلة، مع أيدي الطبقة الرأسمالية، أصبحوا يرفعون شعار تحقيق حقوق العمال عن طريق النقابات وعن طريق البرلمانات، وعن طريق الانتخابات، هذه الحالة هي حالة الاسترخاء السياسي، كل هذا وقع في هذه الفترة القصيرة من الزمن التي نحسها، كيف وقع هذا كله؟

هل كان ماركس سيّئ الظن الى هذه الدرجة بهؤلاء الرأسماليين، بهؤلاء المجرمين والمستغلين، بحيث تنبأ بهذه النبوءات ثم ضاعت هذه النبوءات كلها فلم يتحقق شيء منها؟

هل كان هذا سوء ظن من ماركس لهؤلاء المستغلين؟

هل ان هؤلاء الرأسماليين المستغلين دخل في نفوسهم الرعب من ماركس ومن الماركسية ومن الثورات التحررية في العالم؟

هل دخل في أنفسهم الرعب فحاولوا ان يتنازلوا عن جزء من مكاسبهم خوفاً من أن يثور العامل عليهم؟

هل هذا صحيح؟

هل ان المليونير الامريكي يخالج ذهنه فعلاً أي شبح من خوف من هذه الناحية؟ اشد الناس تفاؤلاً بمصائر الثورة في العالم لا يمكنه ان يفكر في ان ثورة حقيقية على الظلم في امريكا يمكن ان تحدث قبل مئة سنة من هذا التاريخ. فكيف يمكن ان نفترض ان المليونير الامريكي أصبح أمامه شبح الخوف والرعب، وعلى أساس هذا الشبح تنازل عن جزء من مكاسبه؟

هل انه دخلت الى قلوبهم التقوى فجأة إستنارت قلوبهم بنور الاسلام الذي أنار قلوب المسلمين الأوائل الذين كانوا لا يعرفون حداً للمشاركة والمواساة والذين كانوا يشاطرون اخوانهم غنائمهم وسرّاءهم وضرّاءهم؟

هل تحول هؤلاء بين عشية وضحاها الى مسلمين، الى قلوب مسلمة؟ لا.. لم يتحقق شيء من ذلك، لا كارل ماركس كان سيّئ الظن بهؤلاء، كان ظنه منطبقاً على هؤلاء انطباقاً تاماً. ولا أن هؤلاء أرعبهم شبح العامل فتنازلوا من أجل إسكاته ولا ان قلوبهم خفقت بالتقوى، لم تعرف التقوى ولن تعرف التقوى لأنها انغمست في لذّات المال وفي الشهوات، لم يتحقق شيء من ذلك، اذن ماذا وقع وكيف نفسر هذا الذي وقع؟ هذا الذي وقع في الحقيقة كان نتيجة تناقض آخر عاش مع التناقض الطبقي منذ البداية، لكن ماركس والثوار الذين ساروا على هذا الطريق، لم يستطيعوا أن يكتشفوا ذلك التناقض، ولهذا حصروا انفسهم في التناقض الطبقي، في التناقض بين

المليونير الامريكي والعامل الامريكي، بين الغني الانجليزي والعامل الإنجليزي، ولم يدخلوا في الحساب التناقض الآخر الاكبر الذي أفرزه جدل الانسان الاوروبي، افرزه تناقض الانسان الاوروبي فغطى على هذا التناقض الطبقي، بل جنّده، بل أوقفه الى فترة طويلة من الزمن. ما هو ذلك التناقض؟

نحن بنظرتنا المنفتحة يمكننا أن نبصر ذلك التناقض، أن نضع إصبعنا على ذلك التناقض لأننا لم نحصر انفسنا في اطار التناقض الطبقي، بل قلنا إن جدل الانسان دائماً يفرز أي شكل من أشكال التناقض الاجتماعي، ذلك التناقض الآخر وجد فيه الرأسمالي المستغل الاوروبي والامريكي، وجد فيه أن من طبيعة هذا التناقض ان يتحالف مع العامل، مع من يستغله لكي يشكل هو والعامل قطباً في هذا التناقض، لم يعد التناقض تناقضاً بين الغني الاوروبي والعامل الاوروبي بل ان هذين الوجودين الطبقيين تحالفا معا وكوّنا قطباً في التناقض اكبر بدأ تاريخياً منذ بدأ ذلك التناقض الذي تحدث عنه ماركس. لكن ما هو القطب الآخر في هذا التناقض؟ القطب الآخر في هذا التناقض هو أنا وأنت، هو الشعوب الفقيرة في العالم، هو شعوب ما يسمى ب«العالم الثالث»، هم شعوب آسيا وأفريقيا وامريكا اللاتينية هذه الشعوب هي التي تمثل القطب الثاني في هذا التناقض.

ان الانسان الاوروبي بكلا وجوديه الطبقيين تحالف وتمحور من أجل أن يمارس صراعه واستغلاله لهذه الشعوب الفقيرة، وقد انعكس هذا التناقض الاكبر، انعكس اجتماعياً من خلال صيغ الاستعمار المختلفة التي زخرت بها الساحة التاريخية منذ خرج الانسان الاوروبي والامريكي من

دياره ليفتش عن كنوز الارض في مختلف أرجاء العالم، ولينهب الأموال بلا حساب من مختلف البلاد والشعوب الفقيرة، هذا التناقض غطى على التناقض الطبقي، بل جمد التناقض الطبقي لأن جدل الانسان من وراء هذا التناقض كان أقوى من جدل الانسان من وراء ذلك التناقض، والثراء الهائل الذي تكدس في أيدي الطبقة الرأسمالية في الدول الرأسمالية لم يكن كله، بل ولا معظمه نتاج عرق جبين العامل الاوروبي والامريكي، وانما كان نتاج غنائم حرب، كان نتاج غنائم غارات، غارات على هذه البلاد الفقيرة، على بلاد أخرى استطاع الانسان الابيض ان يغزوها وان ينهبها، هذا النعيم الذي تغرق فيه تلك الدول ليس من عرق جبين العامل الاوروبي، ليس من نتاج التناقض الطبقي بين الرأسمالي والعامل وانما هذا النعيم هو من نفط آسيا وامريكا اللاتينية، هو من ألماس تنزانيا، هو من الحديد والرصاص والنحاس واليورانيوم في مختلف بلاد أفريقيا، هو من قطن مصر، هو من تنباك لبنان، هو من خمر الجزائر، نعم من خمر الجزائر، لأن الكافر المستعمر الذي استعمر الجزائر حول أرضها كلها الى بستان عنب لكي يقطف هذا العنب ويحوله الى خمر ليسكر به العمال، وليشعر اولئك العمال بالنشوة والخيلاء، لانهم يشربون خمر الجزائر، يقطفون عنب الجزائر فيحولونه إلى خمر! نعم ذلك النعيم، كله من هذه المصادر، من هذه الينابيع، سكروا على خمر الجزائر ولم يسكروا على عرق جبين العامل الفرنسي أو الاوروبي أو الامريكي.

اذن التناقض الذي جمّد ذلك التناقض والذي اوقف ذلك التناقض هو هذا التناقض الاكبر، التناقض بين المحور الرأسمالي ككل بكلتا طبقتيه، وما

بين الشعوب الفقيرة في العالم.

من خلال هذا التناقض وجد الرأسمالي الاوروبي والامريكي أن من مصلحته أن يقاسم العامل شيئاً من هذه الغنائم التي نهبها مني ومنك، التي نهبها من فقراء الارض والمستضعفين في الارض، وان من مصلحته أن يعطي نعمة منها، ان يسكر هو ويسكر العمال ايضاً بخمر الجزائر، ان يتزين بماس تنزانيا ويتزين العامل أو زوجته بماسة من ماسات تنزانيا.

ولهذا نرى أن العامل بدأت حياته تختلف عن نبوءات ماركس، ليس ذلك لاجل كرم طبيعي في الرأسمالي الاوروبي والامريكي، وليس لتقوى، وانما هي غنيمة كبيرة كان من المفروض أن يعطي جزءاً منها لهذا العامل والجزء وحده يكفي لأجل تحقيق هذا الرفاه بالنسبة الى هذا العامل الاوروبي والامريكي.

اذن الحقيقة التي يثبتها التاريخ دائماً هو ان التناقض لا يمكن حصره في صيغة واحدة، التناقض له صيغ متعددة وذلك لأن كل هذه الصيغ تنبع من منبع واحد وهو التناقض الرئيسي، الجدل الانساني، والجدل الانساني لا تعوزه صيغة، اذا حلت صيغة وضع صيغة أخرى مكانها ليس من الصحيح ان نطوق كل التناقضات في التناقض الطبقي، في التناقض بين من يملك ومن لا يملك، فاذا حللنا هذا التناقض قلنا بأن التناقضات كلها قد حلت، التناقض لا يمكن حصره في هذه الصيغة، التناقض هو استغلال القوي للضعيف.

عناصر المجتمع

في القرآن الكريم (٦)[1]

قلنا إن خط علاقات الانسان مع الطبيعة مختلف مشكلة وقانوناً عن خط علاقات الانسان مع أخيه الانسان، وذكرنا ان هذين الخطين كل واحد منهما مستقل استقلالاً نسبياً عن الخط الآخر، لكن هذا الاستقلال النسبي لا ينفي التفاعل والتأثير المتبادل الى حد ما، بين هذين الخطين، فلكل منهما لون من التأثير الطردي أو العكسي على الخط الآخر، وهذا التأثير المتبادل بين الخطين يمكن ابرازه ضمن علاقتين قرآنيتين بين هذين الخطين، العلاقة الاولى تبرز مدى تأثير خط علاقات الانسان مع الطبيعة على خط علاقات الانسان مع أخيه الانسان.

والعلاقة القرآنية الثانية تبرز من الجانب الآخر مدى تأثير علاقات الانسان مع أخيه الانسان على علاقات الانسان مع الطبيعة. أما العلاقة الاولى التي تبرز تأثير علاقات الانسان مع الطبيعة على الخط الآخر فمؤدى هذه العلاقة هو أنه كما نمت قدرة الانسان على الطبيعة، واتسعت

---

١ ـ الدرس الثالث عشر، الثلاثاء ٤ / رجب / ١٣٩٩هـ.

سيطرته عليها، وازداد اغتناءً بكنوزها، ووسائل انتاجها، تحققت بـذلك امكانية اكبر فأكبر للاستغلال على خط عـلاقات الانسـان مـع أخـيه الانسان ﴿كَلاّ إنَّ الإنسانَ لَيَطغى، أنْ رَآهُ استَغنى﴾[1]، هذه الآية الكريمة تشير الى هذه العلاقة الى ان الانسانية بقدر ما تتمكن وتستقطب الطبيعة وتتوصل الى وسائل انتاج أقوى وأدوات توليد أوسع، تكون انعكاسات ذلك على حقل علاقات الانسان مع أخيه الانسان، انعكاساته على شكل امكانيات واغراءات وفتح الشهية للاقوياء لكي يستثمروا أداة الانتاج في سبيل استغلال الضعفاء.

تصوروا مجتمعاً يعيش على الصيد باليد والحجارة والهراوة، مثل هذا المجتمع لا يتمكن من أن يمارس بذور الاقوياء، بذور الوحوش فيه لا يتمكنون على الاغلب من أن يـمارسوا أدواراً خـطيرة مـن الاسـتغلال الاجتماعي، لأن مستوى الانتاج محدود والقدرة محدودة وكل انسان لا يكسب عادة بعرق جبينه إلّا قوت يومه، فلا توجد امكانية الاسـتغلال بشكله الاجتماعي الواسع وان كان توجد ألوان اخرى مـن الاسـتغلال الفردي، ولكن لاحظوا من الجانب الآخر مجتمعاً متطوراً استطاع الانسان فيه أن يصنع الآلة البخارية والآلة الكهربائية، اسـتطاع فـيه أن يـخضع الطبيعة لارادته، في مثل هذا المجتمع سوف تكون الآلة البخارية والآلة الكهربائية المعقدة المتطورة الصنع تكون أداة امكانية على ساحة علاقات الانسان مع أخيه الانسان، تشكل بحسب مصطلح الفلاسفة مـا بـالقوة

---

١ ـ سورة العلق، الآية (٦).

للاستغلال ويبقى ان يخرج ما بالقوة الى ما بالفعل وذلك على عهدة الانسان ودوره التاريخي على الساحة الاجتماعية، فالانسان هو الذي يصنع الاستغلال، هو الذي يفرز النظام الرأسمالي المستغل حينما يجد الآلة البخارية والكهربائية، ولكن الآلة البخارية والكهربائية هي التي تعطيه امكانية هذا الاستغلال، هي التي تهيئ له فرصة تفتح شهيته، توقظ مشاعره، تحرك جدله الداخلي وتناقضه الداخلي من اجل أن يبرز صيغة تتناسب مع ما يوجد على الساحة من قوى الانتاج ووسائل التوريد.

وهذا هو الفرق بيننا وبين المادية التاريخية، المادية التاريخية اعتقدت بأن الآلة هي التي تصنع الاستغلال، هي التي تصنع النظام المتناسب لها، ولكننا نحن لا نرى ان دور الآلة هو دور الصانع، وانما دور الآلة هو دور الامكانية، دور توفير الفرصة والقابلية، وأما الصانع الذي يتصرف ايجاباً وسلباً، أمانة وخيانة، صموداً وانهياراً، انما هو الانسان وفقاً لمحتواه الداخلي، لمثله الاعلى، لمدى التحامه مع هذا المثل الاعلى، هذه هي العلاقة الاولى.

وأما العلاقة القرآنية الثانية التي تمثل وتجسد تأثير علاقات الانسان مع الطبيعة، فمؤدى هذه العلاقة القرآنية هو أنه كلما جسدت علاقات الانسان مع أخيه الانسان العدالة وكلما استطاعت ان تستوعب قيم هذه العدالة وان تبتعد عن أي لون من ألوان الظلم والاستغلال من الانسان لأخيه الانسان، كلما وقع ذلك، ازدهرت علاقات الانسان مع الطبيعة وتفتحت الطبيعة عن كنوزها. وأعطت المخبوء من ثرواتها ونزلت البركات من السماء، وتفجرت الارض بالنعمة والرخاء.

هذه العلاقة القرآنية هي العلاقة التي شرحها القرآن الكريم في نصوص عديدة، قال سبحانه وتعالى ﴿وَ أَنْ لَو استَقاموا عَلى الطّرِيقَةِ لأسقَيناهُم ماءً غَدَقاً﴾[1].

﴿وَلَو أَنَّهُم اقامُوا التّورَاةَ والإنجيلَ وَمَا أُنزلَ إلَيهِم مِن رَبِّهم لأكَلُوا مِن فَوقِهِم وَمِن تَحتِ أرجُلِهم﴾[2].

﴿وَلَو أنَّ أهلَ القُرى آمنُوا واتّقَوا لَفَتحنا عَلَيهم بَرَكاتٍ من السّماءِ والأَرض، وَلكِن كذّبوا فَأَخذناهُم بِما كانُوا يَكسِبُونَ﴾[3]، هذه العلاقة مؤداها ان علاقات الانسان مع الطبيعة تتناسب عكسياً مع ازدهار العدالة في علاقات الانسان مع اخيه الانسان، فكلما ازدهرت العدالة في علاقات الانسان مع اخيه الإنسان اكثر فأكثر ازدهرت علاقات الانسان مع الطبيعة، وكلما انحسرت العدالة عن الخط الاول انحسر الازدهار عن الخط الثاني، أي ان مجتمع العدل هو الذي يصنع الازدهار في علاقات الانسان مع الطبيعة، ومجتمع الظلم هو الذي يؤدي الى انحسار تلك العلاقات، علاقات الانسان مع الطبيعة، وهذه العلاقة ليست ذات محتوى غيبي فقط، نعم نحن نؤمن ايضاً بمحتواها الغيبي ولكن اضافة الى محتواها الغيبي الرباني هي تشكل سنة من سنن التاريخ بحسب مفهوم القرآن الكريم وذلك لأن مجتمع الظلم، مجتمع الفراعنة على مرّ التاريخ مجتمع ممزق، مشتت، الفرعونية

١ ـ سورة الجن، الآية (١٦).

٢ ـ سورة المائدة، الآية (٦٦).

٣ ـ سورة الاعراف، الآية (٩٦).

على مرّ التاريخ حينما تتحكم في علاقات الانسان مع أخيه الانسان تستهدف تمزيق طاقات المجتمع، وتشتيت فئاته، وبعثرة امكانياته، ومن الواضح أنه تشتيت وبعثرة وتفتيت وتجزئة من هذا القبيل لا يمكن لأفراد المجتمع ان يحشدوا قواهم الحقيقية والسيطرة على الطبيعة.

وهذا هو الفرق بين المثل العليا المنخفضة الفرعونية وبين المثل الاعلى الحق مثل التوحيد سبحانه وتعالى، فان المثل الاعلى يوحد الجامعة البشرية ويلغي كل الفوارق والحدود باعتبار شمولية هذا المثل الاعلى، باعتبار شموليته فهو يستوعب كل الحدود وكل الفوارق، يهضم كل الاختلافات، يصهر البشرية كلها في وحدة متكافئة، لا يوجد ما يميز بعضها عن بعض، لا من دم ولا من جنس ولا من قومية ولا من حدود جغرافية أو طبقية.

المثل الاعلى بشموليته يوحّد البشرية ولكن المثل العليا المنخفضة تجزئ البشرية وتشتت البشرية، انظروا الى المثل الاعلى كيف يقول ﴿إنَّ هذِهِ امّتُكُم امّةً واحِدةً وَأنا رَبُّكم فَاعبُدُون﴾[1]،﴿وَأنّ هذِهِ امّتُكُم أُمةً واحِدةً وَانّا رَبَّكم فاتّقونِ﴾[2]، هذا هو منطق شمولية المثل الاعلى التي لا تعترف بحد وبحاجز في داخل هذه الاسرة البشرية، انظروا، استمعوا الى المثل المنخفض، الى مجتمع الظلم وآلهة مجتمع الظلم يقولون، أو كيف يتحدث

---

١ ـ سورة الأنبياء، الآية (٩٢).

٢ ـ سورة المؤمنون، الآية (٥٢).

عنهم القرآن الكريم ﴿إِنَّ فِرعَونَ عَلا في الارضِ وَجَعَلَ أَهلَها شِيَعاً﴾[1]، فرعون المثل الاعلى المنخفض، الفرعونية على مرّ التاريخ التي تبني العلاقات بين الانسان وأخيه الانسان على أساس الظلم والاستغلال، الفرعونية تجزئ المجتمع، تبعثر امكانيات المجتمع وطاقات المجتمع، ومن هنا تهدر ما في الانسان من قدرة على الابداع والنمو الطبيعي على ساحة علاقات الانسان مع الطبيعة، وعملية التجزئة الفرعونية للمجتمع تقسم المجتمع الى فصائل وجماعات: الجماعة الاولى ظالمون مستضعفون، هذه الجماعة الاولى في التقسيم الفرعوني هم الظالمون المستضعفون، في نفس الوقت الظالمون الثانويون أو بحسب تعبير أئمتنا عليهم الصلاة والسلام «اعوان الظلمة» هؤلاء الظالمون المستضعفون يشكلون حماية لفرعون وللفرعونية وسنداً في المجتمع لبقاء الفرعونية واستمرار وجودها واطارها. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَو تَرى إِذِ الظّالِمونَ مَوقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِم يَرجِعُ بَعضُهُم إِلى بَعضٍ القَولَ يقولُ الَّذينَ استُضعِفُوا لِلَّذينَ استَكبَروا لَو لا أَنتُم لَكُنَّا مُؤمِنينَ﴾[2]. هنا القرآن يتحدث عن الظالمين يقول ﴿إِذِ الظّالِمُونَ مَوقُوفُونَ﴾ لكن الظالمين صنفهم الى قسمين: الى من استضعف منهم ومن استكبر منهم. اذن فالظالمون فيهم مستكبرون وهم الذين يمثلون الفرعونية في المجتمع وفيهم مستضعفون.

فالطائفة الاولى اذن في التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم هم الظالمون

---

١ ـ سورة القصص، الآية (٤).

٢ ـ سورة سبأ، الآية (٣١).

المستضعفون، هؤلاء الذين يحشرون يوم القيامة في زمرة الظالمين ثـم يقولون للمستكبرين من الظالمين لولا انتم لكنا مؤمنين، هذه هي الطائفة الاولى التي تشكل الحماية والسند للفرعونية.

الطائفة الثانية في عملية التمزقة الفرعونية لمجتمع الظلم ظالمون يشكلون حاشية ومتملقين، اولئك الذين قد لا يمارسون ظلماً بأيديهم بالفعل ولكنهم دائماً وابداً على مستوى نزوات فرعون وشهوات فرعون ورغبات فرعون يسبقونه بالقول من أجل ان يصححوا مسلكه ومسيرته. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[1]، شكلوا دور الاثارة لفرعون، هؤلاء كانوا يعرفون انهم بهذا الكلام يضربون على الوتر الحساس في قلب فرعون، وان فرعون كـان بحاجة الى كلام من هذا القبيل، فتسابقوا الى هذا الكلام لكـي يـجعلوا فرعون يعبر عما في نفسه ويتخذ الموقف المنسجم مع مشاعره وعواطفه وفرعونيته.

الطائفة الثالثة في عميلة التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم أولئك الذين عبر عنهم الامام علي عليه السلام «بالهمج الرعـاع» جـماعة هـم مـجرد آلات مستسلمة للظلم، لا تحس بالظلم، لا تدرك إنها مظلومة ولا تدرك ان في المجتمع ظلماً، هي آلات تتحرك آلياً، تحركاً يشبه التحرك الميكانيكي للآلة، تحرك التبعية والطاعة دون تدبر، دون وعي، سلب فرعون منها تدبرها،

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية (١٢٧).

عقلها، وعيها، ربط يدها به لا عقلها به، ولهذا فهي تحرك يدها تحريكاً آلياً وتستسلم للاوامر، للأوامر الفرعونية دون أن تناقشها حتى دون ان تتدبرها، حتى بينها وبين نفسها لا بينها وبين الآخرين، هذه الفئة طبعاً تفقد كل قدرة على الابداع البشري في مجال التعامل مع الطبيعة، تفقد كل قابليات النمو لأنها تحولت الى آلات، اذا وجد أن هناك ابداعاً في هذه الفئة إنما هو ابداع من يحرك هذه الآلات، ابداع تلك الفرعونية التي تحرك هذه الآلات، وأما هذه الفئة فلم تعد أناساً وبشراً يفكرون ويتدبرون لكي يستطيعوا أن يحققوا لوناً من الابداع على هذه الساحة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقالُوا رَبَّنا إِنّا أَطَعنا سادَتَنا وكُبراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبيلا﴾[1]، لا يوجد في كلام هؤلاء ما يشعر بأنهم كانوا يحسون بالظلم أو كانوا يحسون بأنهم مظلومون وانما هو مجرد طاعة، مجرد تبعية، هؤلاء هم القسم الثالث في تقسيم مولانا أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام حينما قال «الناس ثلاثة: عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع ينعقون مع كل ناعق»، وهذا القسم الثالث يشكل مشكلة بالنسبة الى أي مجتمع صالح، وبقدر ما يمكن للمجتمع الصالح أن يستأصل هذا القسم الثالث بتحويله الى القسم الثاني، بتحويله الى متعلم على سبيل النجاة على حد تعبير الامام، الى تابع باحسان على حد تعبير القرآن، الى مقلد بوعي وتبصر على حد تعبير الفقه، بقدر ما يمكن تحويل هذا القسم الثالث الى القسم الثاني يمكن للمجتمع الصالح أن يستمر وأن يمتد، ولهذا كان من ضرورات المجتمع الصالح في نظر الامام عليه السلام هو شجب هذا القسم الثالث، هؤلاء همج، رعاع

---

١ ـ سورة الاحزاب، الآية (٦٧).

ينعقون مع كل ناعق، ليس لهم عقل مستقل، وارادة مستقلة. كان الامام عليه السلام يرى ان هذا القسم الثالث يجب تصفيته من المجتمع الصالح، ذلك لا بالقضاء عليه فردياً، بل بتحويله الى القسم الثاني ضمن إحدى الصيغ الثلاث التي ذكرناها، لكي يستطيع المجتمع الصالح أن يواصل ابداعه، ولكي يستطيع كل أفراد المجتمع الصالح، أن يشكلوا مشاركة حقيقية في مسيرة الابداع. وخلافاً لذلك الفرعونية، الفرعونية تحاول أن توسع من هذا القسم الثالث، هؤلاء الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كل ناعق تحاول الفرعونية ان توسع منهم وكلما توسعت هذه الفئة أكثر فأكثر قدمت المجتمع نحو الدمار خطوة بعد خطوة لأن هذه الفئة لا تستطيع بوجه من الوجوه ان تدافع عن المجتمع اذا حلت كارثة في الداخل أو طرأت كارثة من الخارج، فكلما توسعت هذه الفئة، هذا القسم الثالث، هؤلاء الذين ينعقون مع كل ناعق،كلما توسعوا في المجتمع ازداد خطر فناء المجتمع وبهذا تموت المجتمعات موتاً طبيعياً.

مفهوم الموت لدى القرآن للمجتمعات وللاقوام وللامم الموت الطبيعي للمجتمع لا الموت المخروم. المجتمع له موتان: موت طبيعي وموت مخروم. الموت الطبيعي للمجتمع يكون عن طريق توسع هذه الفئة الثالثة وازديادها نوعياً وعددياً في المجتمع الى أن تحل الكارثة فينهار المجتمع. هذه الطائفة الثالثة في عميلة التجزئة الفرعونية.

أما الطائفة الرابعة: هم اولئك الذين يستنكرون الظلم في أنفسهم، اولئك الذين لم يفقدوا لبهم أمام فرعون والفرعونية فهم يستنكرون الظلم لكنهم يهادنونه ويسكتون عنه فيعيشون حالة التوتر والقلق في أنفسهم،

وهذه الحالة، حالة التوتر والقلق أبعد ما تكون عن حالة تسمح للانسان بالابداع والتجديد والنمو على ساحة علاقات الانسان مع الطبيعة. هؤلاء يسميهم القرآن الكريم ﴿ظالِمي أَنفُسهم﴾، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الذينَ تَوَفّاهُم المَلائِكَةُ ظالِمي أَنفُسِهِم قالُوا فِيمَ كُنتُم قالُوا كُنّا مُستَضعَفينَ في الأَرضِ قالُوا أَلَم تَكُن أَرضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِروا فِيها﴾[1] هؤلاء لم يظلموا الآخرين، ليسوا من الظالمين المستضعفين كالطائفة الاولى، وليسوا من الحاشية المتملقين، وليسوا ايضاً من الهمج الرعاع الذين فقدوا لبهم بل بالعكس هم يشعرون بأنهم مستضعفون. ﴿قالُوا كُنّا مُستَضعَفينَ في الأَرضِ﴾ هؤلاء لم يفقدوا لبهم، يدركون واقعهم ولكنهم كانوا عملياً مهادنين ولهذا عبر عنهم القرآن بأنهم ظلموا أنفسهم، هذه الطائفة هل يترقب منها أن تساعد بابداع حقيقي في مجال علاقات الانسان مع الطبيعة؟ طبعاً كلا.

الطائفة الخامسة في عملية التجزئة الفرعونية للمجتمع هي: الطائفة التي تتهرب من مسرح الحياة، تبتعد عن المسرح وتتهرب منه وتترهب. وهذه الرهبانية موجودة في كل مجتمعات الظلم على مرّ التاريخ وهي تتخذ صيغتين: الاولى صيغة جادة، رهبانية جادة تريد ان تفر بنفسها لكي لا تتلوث بأوحال المجتمع، هذه الرهبانية الجادة التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله ﴿وَرَهبانِيَّةً ابتَدَعُوها﴾[2] هذه الرهبانية يشجبها الاسلام لأنها موقف

---

١ ـ سورة النساء، الآية ٩٧.

٢ ـ سورة الحديد، الآية ٢٧.

سلبي تجاه مسؤولية خلافة الانسان على الارض. وهناك صيغة مفتعلة للرهبانية، يترهب ويلبس مسوح الرهبان ولكنه ليس راهباً في اعـماق نفسه، وانما يريد بذلك ان يخدر الناس ويشغلهم عن فرعون وظلم فرعون ويسطو عليهم نفسياً وروحياً.

وهذا هو الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحبارِ والرُّهبانِ لَيَأكُلُونَ أَموالَ النَّاسِ بِالباطِلِ ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلَ اللهِ﴾[1].

الجماعة السادسة والاخيرة في عملية التجزئة الفرعونية للمجتمع هم: المستضعفون. الفرعونية حينما جزأت المجتمع الى طوائف، فرعون حينما اتخذ من قومه شيعاً إستضعف طائفة معينة منهم خصها بالاستضعاف والاذلال وهدر الكرامة لأنها كانت هي الطائفة التي يتوسم ان تشكل اطاراً للتحرك ضده ولهذا استضعفها بالذات. ﴿وَاذ نَجَّيناكُم مِن آلِ فِرعُونَ يَسومُونَكُم سُوءَ العَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبناءَكُم وَيَستحيُونَ نِساءَكُم وَفي ذلِكُم بَلاءٌ مِن رَبِّكُم عَظِيم﴾[2] هذه هي الطائفة السادسة وقد علمنا القران الكريم ضمن سنة من سنن التاريخ ايضاً ان موقع أي طائفة في التركيب الفرعوني لمجتمع الظلم يتناسب عكساً مع موقعه بعد انحسار الظلم، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى ﴿وَنُرِيدُ أَن نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ استضعِفُوا في الأرضِ وَنَجعَلَهُم أَئمَّةً وَنَجعَلَهُمُ الوارِثينَ﴾[3]. تلك الطائفة السادسة التي كانت هي منحدر التركيب يريد الله

---

١ ـ سورة التوبة، الآية ٣٤.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٤٩.

٣ ـ سورة القصص، الآية ٥.

سبحانه وتعالى ان يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين وهذه علاقة اخرى وسنة تاريخية اخرى يأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى.

اذن فالى هنا استخلصنا هذه الحقيقة وهي: ان المجتمع يتناسب مدى الظلم فيه تناسباً عكسياً مع ازدهار علاقات الانسان مع الطبيعة، ويتناسب مدى العدل فيه تناسباً طردياً مع ازدهار علاقات الانسان مع الطبيعة. مجتمع الفرعونية المجزأ المشتت مهدور القابليات والطاقات والامكانيات ومن هنا تحبس السماء قطرها، وتمنع الأرض بركاتها، واما مجتمع العدل فهو على العكس تماماً هو مجتمع تتوحد فيه كل القابليات وتتساوى فيه كل الفرص والامكانيات، هذا المجتمع الذي تحدثنا الروايات عنه، تحدثنا عنه من خلال ظهور الامام المهدي عليه السلام، تحدثنا عما تحتفل به الارض والسماء في ظل الامام المهدي عليه السلام من بركات وخيرات، وليس ذلك إلّا لأن العدالة دائماً وأبداً تتناسب طرداً مع ازدهار علاقات الانسان مع الطبيعة، هذه العلاقة الثانية بين الخطين.

عناصر المجتمع

في القرآن الكريم (٧)[1]

خرجنا مما سبق بنظرية تحليلية قرآنية كاملة لعناصر المجتمع ولادوار هذه العناصر وللعلاقة القائمة بين الخطين المزدوجين في العلاقة الاجتماعية، خط علاقات الانسان مع اخيه الانسان، وخط علاقات الانسان مع الطبيعة، وانتهينا على ضوء هذه النظرية القرآنية الشاملة الى ان هذين الخطين احدهما مستقل عن الآخر استقلالاً نسبياً ولكن كل واحد منهما له نحو تأثير في الآخر على الرغم من ذلك الاستقلال النسبي، وهذه النظرية القرآنية في تحليل عناصر المجتمع وفهم المجتمع فهما موضوعياً تشكل اساساً للاتجاه العام في التشريع الاسلامي، فان التشريع الاسلامي في اتجاهاته العامة وخطوطه يتأثر وينبثق ويتفاعل مع وجهة النظر القرآنية والاسلامية الى المجتمع وعناصره وادوار هذه العناصر والعلاقات المتبادلة بين الخطين، هذه النظريات التي قرأناها والتي انتهينا اليها على ضوء المجموعة المذكورة سابقاً من النصوص القرآنية، هذه النظريات هي في

١ ـ الدرس الرابع عشر، يوم الاربعاء ٥/ رجب / ١٣٩٩هـ

الحقيقة الاساس النظري للاتجاه العام للتشريع الاسلامي، فان الاستقلال النسبي بين الخطين، خط علاقات الانسان مع اخيه الانسان وخط علاقات الانسان مع الطبيعة، هذا الاستقلال النسبي يشكل القاعدة لعنصر الثبات في الشريعة الاسلامية والاساس لتلك المنطقة الثابتة من التشريع التي تحتوي على الاحكام العامة المنصوصة ذات الطابع الدائم المستمر في التشريع الاسلامي، بينما منطقة التفاعل بين الخطين، بين خط علاقات الانسان مع الطبيعة وخط علاقات الانسان مع اخيه الانسان، منطقة التفاعل والمرونة تشكل في الحقيقة الاساس لما أسميناه في كتاب «اقتصادنا» بمنطقة الفراغ، تشكل الاساس للعناصر المرنة والمتحركة في التشريع الاسلامي، هذه العناصر المرنة والمتحركة في التشريع هي انعكاس تشريعي لواقع تلك المرونة وذلك التفاعل بين الخطين، والعناصر الاولى الثابتة والصامدة في التشريع الاسلامي هي انعكاس تشريعي لذلك الاستقلال النسبي الموجود بين الخطين، بين خط علاقات الانسان مع اخيه الانسان وخط علاقات الانسان مع الطبيعة، ومن هنا نؤمن بأن الصورة التشريعية الاسلامية الكاملة لمجتمع هي في الحقيقة تحتوي على جانبين، تحتوي على عناصر ثابتة، وتحتوي على عناصر متحركة ومرنة، وهذه العناصر المتحركة والمرنة التي ترك للحاكم الشرعي ان يملأها فرضت أمام مؤشرات اسلامية عامة أيضاً لكي يملأ هذه العناصر المتحركة وفقا لتلك المؤشرات الاسلامية العامة، وهذا بحث يحتاج الى كلام اكثر من هذا، تفصيلاً وإطناباً، من المفروض ان نستوعب هذا البحث إن شاء الله تعالى لكي نربط الجانب التشريعي من الاسلام بالجانب النظري التحليلي من

القرآن الكريم لعناصر المجتمع، وبعد ذلك يبقى علينا بحث آخر في نظرية الاسلام عن ادوار التاريخ، عن ادوار الانسان على الارض، فان القرآن الكريم يقسم حياة الانسان على الارض الى ثلاثة ادوار، دور الحضانة، ودور الوحدة، ودور التشتت والاختلاف. وهذه ادوار ثلاثة تحدث عنها القرآن الكريم، بين لكل دور الحالات والخصائص والمميزات التي يتميز بها ذلك الدور، هذا ايضاً بحث سوف نخرج منه بنظرية شاملة كاملة لهذا الجانب من تاريخ الانسان، كل ذلك لا يمكن ان يسعه يوم واحد، وبحث واحد اذن فمن الأفضل ان نؤجل ذلك،وننصرف الآن من منطقة الفكر الى منطقة القلب، من منطقة العقل الى منطقة الوجدان، أريد ان نعيش معاً لحظات بقلوبنا لا بعقولنا فقط، بوجداننا، بقلوبنا، نريد ان نعرض هذه القلوب على القرآن الكريم بدلاً عن ان نعرض افكارنا وعقولنا، نعرض صدورنا،لمن ولاؤها؟ما هو ذاك الحب الذي يسودها ويمحورها ويستقطبها؟

ان الله سبحانه وتعالى لا يجمع في قلب واحد ولاءين، لا يجمع حبين مستقطبين. اما حب الله واما حب الدنيا، اما حب الله وحب الدنيا معاً فلا يجتمعان في قلب واحد، فلنمتحن قلوبنا، فلنرجع الى قلوبنا لنمتحنها، هل تعيش حب الله سبحانه وتعالى، او تعيش حب الدنيا، فان كانت تعيش حب الله زدنا ذلك تعميقاً وترسيخاً، وان كانت «نعوذ بالله» تعيش حب الدنيا، حاولنا ان نتخلص من هذا الداء الوبيل، من هذا المرض المهلك، ان كل حب يستقطب قلب الانسان يتخذ احدى صيغتين واحدى درجتين. الدرجة الاولى ان يشكل هذا الحب محورا وقاعدة لمشاعر وعواطف وآمال وطموحات هذا الانسان، قد ينصرف عنه في قضاء حاجة في

حدود خاصة ولكن يعود، سرعان ما يعود الى القاعدة لأنها هي المركز، وهي المحور، قد ينشغل بحديث، قد يتشغل بكلام، قد ينشغل بعمل، بطعام، بشراب، بمواجهة، بعلاقات ثانوية، بصداقات، لكن يبقى ذاك الحب هـو المحور، هذه هي الدرجة الاولى، والدرجة الثانية من الحب المـحور ان يستقطب هذا الحب كل وجدان الانسان، بحيث لا يشغله شيء عنه على الاطلاق، ومعنى انه لا يشغله شيء عنه انه سوف يرى محبوبه وقـبلته وكعبته اينما توجه، اينما توجه سوف يرى ذلك المحبوب، هذه هي الدرجة الثانية من الحب المحور هذا التقسيم الثنائي ينطبق على حب الله وينطبق على حب الدنيا، حب الله سبحانه وتعالى، الحب الشريف لله المحور يتخذ هاتين الدرجتين، الدرجة الاولى يتخذها في نفوس المؤمنين الصالحين الطاهرين الذين نظفوا نفوسهم من اوساخ هذه الدنيا الدنية هؤلاء يجعلون من حب الله محورا لكل عواطفهم ومشاعرهم وطموحاتهم وآمالهم، قد ينشغلون بوجبة طعام، بمتعة من المتع المباحة، بلقاء مع صديق، بتنزه في شارع، ولكن يبقى هذا هو المحور الذي يرجعون اليه بمجرد ان ينتهي هذا الانشغال الطارئ.

واما بالدرجة الثانية فهي الدرجة التي يصل اليها اولياء الله من الانبياء والائمة عليهم أفضل الصلاة والسلام، «علي بن أبي طالب» الذي نحظى بشرف مجاورة قبره، هذا الرجل العظيم كلكم تعرفون ماذا قال، هو الذي قال «بأني ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله معه وقبله وبعده وفيه» لأن حب الله في هذا القلب العظيم استقطب وجدانه الى الدرجة التي منعه من ان يرى شيئاً آخر غير الله حتى حينما كان يرى الناس، كان يرى فيهم عبيد الله، حتى

حينما كان يرى النعمة الموفورة كان يرى فيها الله سبحانه وتعالى دائما هذا المعنى الحرفي، هذا الربط بالله دائما وأبداً يتجسد امام عينه لأن محبوبه الاوحد، ومعشوقة الاكمل، قبلة آماله وطموحاته، لم يسمح له بشريك في النظر، فلم يكن يرى إلّا الله سبحانه وتعالى.

هذه هي الدرجة الثانية، نفس التقسيم الثنائي يأتي في حب الدنيا، الذي هو رأس كل خطيئة على حد تعبير رسول الله ﷺ، حب الدنيا يتخذ درجتين: الدرجة الاولى أن يكون حب الدنيا محورا للانسان، قاعدة للانسان في تصرفاته وسلوكه يتحرك حينما تكون المصلحة الشخصية في أن يتحرك ويسكن حينما تكون المصلحة الشخصية في أن يسكن، يتعبد حينما تكون المصلحة الشخصية في أن يتعبد وهكذا، الدنيا تكون هي القاعدة، لكن أحيانا ايضاً يمكن ان يفلت من الدنيا، يشتغل أشغالاً أخرى نظيفة، طاهرة، قد يصلي لله سبحانه وتعالى، قد يصوم لله سبحانه وتعالى، لكن سرعان ما يرجع مرة أخرى الى ذلك المحور وينشد اليه، فلتات يخرج بها من اطار ذلك الشيطان ثم يرجع الى الشيطان مرة أخرى، هذه درجة أولى من هذا المرض الوبيل، مرض حب الدنيا، واما الدرجة الثانية من هذا المرض الوبيل فهي الدرجة المهلكة، حينما يعمي حب الدنيا هذا الانسان، يسد عليه كل منافذ الرؤية، يكون بالنسبة الى الدنيا كما كان سيد الموحدين وأمير المؤمنين بالنسبة الى الله سبحانه وتعالى، انه لم يكن يرى شيئاً إلّا وكان يرى الله معه وقبله وبعده حب الدنيا في الدرجة الثانية يصل الى مستوى بحيث ان الانسان لا يرى شيئاً إلّا ويرى الدنيا فيها وقبلها وبعدها ومعها، حتى الاعمال الصالحة تتحول عنده وبمنظاره الى دنيا،

تتحول عنده الى متعة، الى مصلحة شخصية، حتى الصلاة، حتى الصيام، حتى البحث، حتى الدرس، هذه الالوان كلها تتحول الى دنيا لا يمكنه ان يرى شيئاً إلّا من خلال الدنيا، إلّا من خلال مقدار ما يمكن لهذا العمل ان يعطيه، يعطيه من حفنة مال أو من كومة جاه لا يمكن ان يستمر معه إلّا بضعة أيام معدودة، هذه هي الدرجة الثانية، وكل من الدرجتين مهلكة والدرجة الثانية أشد هلكة من الدرجة الاولىٰ ولهذا قال رسول الله ﷺ: **«حب الدنيا رأس كل خطيئة»**، قال الامام الصادق عليه السلام: **«الدنيا كماء البحر من ازداد شرباً منه ازداد عطشاً»**.

لا تقل فلآخذ هذه الحفنة من الدنيا ثم أنصرف عنها، فلأحصل على هذه المرتبة من جاه الدنيا ثم انصرف الى الله، ليس الامر كذلك فان أي مقدار تحصل عليه من مال الدنيا، من مقامات هذه الدنيا الزائلة، سوف يزداد بك العطش والنهم الى المرتبة الاخرى، «الدنيا كماء البحر»، «الدنيا رأس كل خطيئة»، الرسول ﷺ يقول: **«من أصبح واكبر همه الدنيا فليس له من الله شيء»** .هذا الكلام يعني قطع الصلة مع الله، يعني ان ولاءين لا يجتمعان في قلب واحد من كان ولاؤه للدنيا، فليس له من الله شيء، ليس له صلة مع الله سبحانه وتعالى لأن ولاءين لا يجتمعان في قلب واحد، «حب الدنيا رأس كل خطيئة» لأن حب الدنيا هو الذي يفرغ الصلاة من معناها، ويفرغ الصيام من معناه، ويفرغ كل عبادة من معناها، ماذا يبقى من معنى لهذه العبادات، اذا استولى حب الدنيا على قلب الانسان، أنا وانتم نعرف ان اولئك الذين نؤاخذهم على ما عملوا مع أمير المؤمنين، اولئك لم يتركوا صلاة، ولم يتركوا صياماً، ولم يشربوا خمراً، على الاقل عدد كبير

منهم لم يقوموا بشيء من هذا القبيل، لكنهم مع هذا ما هي قيمة هذه الصلاة، وما هي قيمة هذا الصيام، وما هي قيمة العفة عن شرب الخمر اذا كان حب الدنيا هو الذي يملأ القلب.

ما قيمة صلاة عبد الرحمن بن عوف، عبد الرحمن بن عوف كان صحابياً جليل القدر، كان من السابقين الى الاسلام، كان ممن أسلم والناس كفار ومشركون، تربى على يد رسول الله ﷺ، عاش مع الوحي، مع القرآن، مع آيات الله تترى، لكن ماذا دهاه؟ ماذا دهاه حينما فتح الله على المسلمين بلاد كسرى وقيصر، وكنوز كسرى وقيصر، ماذا دهى هذا الرجل المسكين؟ هذا الرجل المسكين ملأ قلبه حب الدنيا، كان يصلي وكان يصوم، ولكن ملأ قلبه حب الدنيا، حينما وقف في خيار واحد بين عثمان وعلي عليه السلام، اما أن يكون عثمان خليفة المسلمين واما يكون علي خليفة المسلمين وهو يعلم أنه لو أعطى هذه الخلافة لعلي لأسعد المسلمين الى أبد الدهر ولكنه يعلم ايضاً انه حينما يعطيها الى عثمان فقد فتح بذلك باب الفتن الى آخر الدهر، يعلم بذلك وقد سمع ذلك من عمر نفسه ايضاً، ولكنه في هذا الخيار غلب حب الدنيا على قلبه، ضرب على يد عثمان وترك يد علي مبسوطة تتنتظر من يبايع، جعل عثمان خليفة، وأقصى علياً عليه السلام عن الخلافة، قد تقولون إن هذه معصية، هذا كترك الصلاة، لأن رسول الله ﷺ جعل علياً خليفة بعده بلا فصل، هذا صحيح، تولي علي بن أبي طالب أهم الواجبات ولكن افرضوا وفرض المحال ليس بمحال، لو أن رسول الله لم ينص على علي بن أبي طالب. أكان هذا الموقف من عبد الرحمن بن عوف مهضوماً؟ اكان هذا الموقف من عبد الرحمن بن عوف صحيحاً؟، لو تركنا

كل نصوص الرسول وتركنا حديث الغدير وحديث الثلقين! لو تركنا كل ذلك، لكن بمنطق حب الله وحب الدنيا، بمنطق الحرص على الاسلام، بمنطق الغيرة على الدين والمسلمين، أكان هذا الموقف من عبد الرحمن بن عوف سليماً، ان يطرح يد علي عليه السلام مبسوطة دون أن يبايعها ويبايع انساناً غير جدير بأن يتحمل الامانة، ان يبايع عثمان بن عفان.

اذن المسألة هنا ليست فقط مسألة نص وانما المسألة هنا مسألة حب الدنيا، مسألة خيانة الامانة لأن حب الدنيا يعمي ويصم، حب عبد الرحمن بن عوف للدنيا أفقد الصلاة معناها، افقد الصيام معناه، أفقد شهر رمضان معناه، أفقد كل شيء مغزاه الحقيقي ومحتواه النبيل الشريف «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، وحب الله سبحانه وتعالى اساس كل كمال، حب الله هو الذي يعطي للانسان الكمال، العزة، الشرف، الاستقامة، النظافة، القدرة على مغالبة الضعف في كل الحالات، حب الله سبحانه وتعالى هو الذي جعل اولئك السحرة، يتحولون الى رواد على الطريق، فقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ ما أَنتَ قاض إِنَّما تَقضِي هذِهِ الحياةَ الدُنيَا﴾[1] كيف قالوا هكذا؟ لأن حب الله اشتعل في قلوبهم فقالوا لفرعون بكل شجاعة وبطولة ﴿فاقض ما أنت قاض، انما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ حب الله هو الذي جعل عليا عليه الصلاة والسلام دائماً يقف مواقف الشجاعة، مواقف البطولة، هذه الشجاعة، شجاعة علي عليه السلام ليست شجاعة السباع، ليست شجاعة الاسود، وانما هي شجاعة الايمان وحب الله، لماذا؟ لأن هذه الشجاعة لم

---

١ ـ سورة طه، الآية ٧٢.

تكن فقط شجاعة البراز في ميدان الحرب، بل كانت أحياناً شجاعة الرفض، أحيانا شجاعة الصبر، علي بن أبي طالب ضرب المثل الاعلى في شجاعة المبارزة في ميدان الحرب، شد حزامه وهو ناهز الستين من عمره الشريف وهجم على الخوارج وحده فقاتل أربعة آلاف انسان، هذه قمة الشجاعة في ميدان المبارزة لأن حب الله اسكره! فلم يجعله يلتفت أن هؤلاء أربعة آلاف وهو واحد، وضرب قمة الشجاعة في الصبر، في السكوت عن الحق، حينما فرض عليه الاسلام أن يصبر عن حقه وهو في قمة شبابه، لم يكن في شيخوخته، كان في قمة شبابه، كانت حرارة الشباب ملء وجدانه، ولكن الاسلام قال له اسكت، اصبر عن حقك حفاظاً على بيضة الدين، ما دام هؤلاء يتحملون حفظ الشعائر الظاهرية للاسلام وللدين، سكت ما دام هؤلاء كانوا يتحفظون على الظواهر والشعائر الظاهرية للاسلام والدين، وكان هذا قمة الشجاعة في الصبر ايضاً! هذه ليست شجاعة الاسود، هذه شجاعة المؤمن الذي اسكره حب الله!

وكان قمة الشجاعة في الرفض، وفي الاباء حينما طرح عليه ذلك الرجل أن يبايعه على شروط تخالف كتاب الله وسنة رسوله بعد مقتل الخليفة الثاني، ماذا صنع هذا الرجل العظيم؟ هذا الرجل العظيم الذي كان يحترق لأن الخلافة ذهبت من يده، يحترق من أجل الله! لا من أجل نفسه، يقول «ولقد تقمصها ابن ابي قحافة وهو يعلم ان محلي منها محل القطب من الرحى»، هذا الرجل الذي كان يحترق لأن الخلافة خرجت من يده، لو أن انساناً يقرأ هذه العبارة وحدها لقال ما اكثر شهوة هذا الرجل الى السلطان والى الخلافة! لكن هذا الرجل نفسه، هذا الرجل بذاته عرضت عليه

الخلافة، عرضت عليه رئاسة الدنيا فرفضها! لا لشيء إلّا لأنها شرطت بشرط يخالف كتاب الله وسنة رسوله. من هنا نعرف ان ذلك الاحتراق لم يكن من أجل ذاته، وانما كان من أجل الله سبحانه وتعالى، اذن هذه الشجاعة شجاعة البراز في يوم البراز، وشجاعة الصبر في يوم الصبر، وشجاعة الرفض في يوم الرفض، هذه الشجاعة خلقها في قلب علي حبه لله، لا اعتقاده بوجود الله، هذا الاعتقاد الذي يشاركه فيه فلاسفة الاغريق ايضاً، أرسطو أيضاً يعتقد بوجود الله، افلاطون ايضاً يعتقد بوجود الله، الفارابي ايضاً يعتقد بوجود الله، ماذا صنع هؤلاء للبشرية، وماذا صنعوا للدين أو للدنيا، ليس الاعتقاد وانما حب الله اضافة الى الاعتقاد، هذا هو الذي صنع هذه المواقف.

ونحن أولى الناس بأن نطلّق الدنيا، اذا كان حب الدنيا خطيئة، فهو منا نحن الطلبة من اشد الخطايا، هذا الشيء الذي هو خطيئة من غيرنا هو اكثر خطيئة منا، نحن أولى من غيرنا بأن نكون على حذر من هذه الناحية، أولاً لأننا نصبنا أنفسنا أدلاء على طريق الآخرة، ما هي مهمتنا في الدنيا، ما هي وظيفتنا في الدنيا؟ اذا سألك انسان، ماذا تعمل، ما هو مبرر وجودك، ماذا تقول؟ تقول بأني أريد أن اشد الناس الى الآخرة، اشد دنيا الناس الى الآخرة، الى عالم الغيب، الى الله سبحانه وتعالى. اذن كيف تقطع دنياك عن الآخرة؟ اذا كانت دنياك مقطوعة عن الآخرة فسوف تشد دنيا الناس الى دنياك لا الى آخرة ربك، سوف نتحول الى قطاع طريق، ولكن أي طريق، الطريق الى الله، لا طريق ما بين بلد وبلد، هذا الطريق الى الله نحن رواده، نحن القائمون على الدلالة اليه، على الاخذ بيد الناس فيه، فلو

انا أغلقنا باب هذا الطريق، لو اننا تحولنا عن هذا الطريق الى طريق آخر اذن سوف نكون حاجباً عن الله، حاجباً عن اليوم الآخر، كل انسان يستولي حب الدنيا على قلبه يهلك هو، أما الطلبة، أما نحن اذا استولى حب الدنيا على قلوبنا سوف نهلك ونهلك الآخرين، لأننا وضعنا أنفسنا في موضع المسؤولية، في موضع ربط الناس بالله سبحانه وتعالى والله لا يعيش في قلوبنا، اذن سوف لن نتمكن من أن نربط الناس بالله، نحن اولى الناس واحق الناس باجتناب هذه المهلكة لاننا ندعي أننا ورثة الانبياء وورثة الائمة والاولياء، اننا السائرون على طريق محمد ﷺ وعلي والحسن والحسين عليهما السلام، ألسنا نحاول أن نعيش شرف هذه النسبة، هذه النسبة تجعل موقفنا أدق من مواقف الآخرين، لاننا نحن حملة أقوال هؤلاء وافعال هؤلاء، أعرف الناس بأقوالهم، واعرف الناس بأفعالهم، ألم يقل رسول الله ﷺ:

«انا معاشر الانبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا عقاراً، انما نورث العلم والحكمة» ألم يقل علي بن أبي طالب عليه السلام: **«ان امارتكم هذه أو خلافتكم هذه لا تساوي عندي شيئاً إلّا أن أقيم حقاً أو أدحض باطلاً»**. ألم يقل علي بن أبي طالب ذلك، ألم يجسد هذا في حياته، في كل حياته، علي بن أبي طالب كان يعمل لله سبحانه وتعالى، لم يكن يعمل لدنياه، لو كان علي يعمل لدنياه لكان اشقى الناس واتعس الناس، لأن علياً حمل دمه على يده منذ طفولته، منذ صباه، يذب عن وجه رسول الله ﷺ وعن دين الله وعن رسالة الله، لم يتردد لحظة في أن يقدم، لم يكن يحسب للموت حساباً، لم يكن يحسب للحياة حساباً، كان دمه دائماً على يده، كان أطوع الناس لرسول الله في

حياة رسول الله ﷺ، وكان أطوع الناس لرسول الله بعد رسول الله ﷺ، كان اكثر الناس عملاً في سبيل الدين، ومعاناة من أجل الاسلام. ماذا حصل، ماذا حصل عليه علي بن أبي طالب عليه السلام؟ لو جئنا الى مقاييس الدنيا، ماذا حصل عليه هذا الرجل العظيم؟ ألم يقص هذا الرجل العظيم، ألم يكن جليس بيته فترة من الزمن، ألم يسبّ هذا الرجل العظيم ألف شهر على منابر المسلمين! التي اقيمت اعوادها بجهاده، بدمه، بتضحياته، سب على منابر المسلمين!

اذن لم يحصل على شيء من الدنيا لا على حطام ولا على مال ولا على منصب ولا على كناء[1] ولا على تقدير، ولكنه على الرغم من ذلك حينما ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالسيف على رأسه[2] ماذا قال هذا الامام العظيم؟ قال: «لقد فزت ورب الكعبة»، لو كان علي بعمل لدنياه لقال والله اني أتعس انسان لأني لم أحصل على شيء في مقابل عمر كله جهاد، كله تضحية، كله حب لله، لم أحصل على شيء، لكنه لم يقل ذلك، قال: «لقد فزت ورب الكعبة» انها والله الشهادة، لأنه لم يكن يعمل لدنياه، كان يعمل لربه، والآن لحظة اللقاء مع الله، هذه اللحظة هي اللحظة التي سوف يلتقي بها علي مع الله سبحانه وتعالى فيوفيه حسابه ويعطيه أجره، يعوضه عما تحمل من شدائد، عما قاسى من مصائب، أليس هذا الامام هو مثلنا الاعلى، أليست حياة هذا الامام هي السنة، أليست مصادر التشريع عندنا

---

١ ـ كناء جمع كنية.

٢ ـ ضربه في مسجد الكوفة وهو ساجد في صلاة الفجر.

الكتاب والسنة، أليست السنة هي قول المعصوم وفعله وتقريره. علينا أن نحذر من حب الدنيا، لأنه لا دنيا عندنا لكي نحبها! ماذا نحب؟ نحب الدنيا؟ نحن الطلبة! ما هي هذه الدنيا التي نحبها ونريد ان نغرق انفسنا فيها ونترك رضواناً من الله أكبر، نترك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا اعترض على خيال بشر، ما هي هذه الدنيا؟ هذه الدنيا دنيانا هي مجموعة من الاوهام، كل دنيا وهم، لكن دنيانا اكثر وهماً من دنيا الآخرين، مجموعة من الاوهام، ماذا نحصل من الدنيا إلّا على قدر محدود جدا، لسنا نحن أولئك الذين نهبوا أموال الدنيا وتحدثنا عنهم سابقاً، لسنا نحن أولئك الذين تركع الدنيا بين أيدينا لكي نؤثر الدنيا على الآخرة. دنيا هارون الرشيد كانت عظيمة، نقيس انفسنا بهارون الرشيد، هارون الرشيد نسبّه ليلاً نهاراً لأنه غرق في حب الدنيا، لكن تعلمون أي دنيا غرق فيها هارون الرشيد، أي قصور مرتفعة عاش فيها هارون الرشيد، أي بذخ وترف كان يحصل عليه هارون الرشيد، أي زعامة وخلافة وسلطان امتد مع أرجاء الدنيا حصل عليه هارون الرشيد، هذه دنيا هارون الرشيد، نحن نقول بأننا أفضل من هارون الرشيد، أورع من هارون الرشيد، أتقى من هارون الرشيد، عجباه نحن عرضت علينا دنيا هارون الرشيد فرفضناها حتى نكن أورع من هارون الرشيد. يا أولادي، يا إخواني، يا أعزائي، يا أبناء علي.. هل عرضت علينا دنيا هارون الرشيد، لا.. عرض علينا دنيا هزيلة، محدودة، ضئيلة، دنيا ما أسرع ما تتفتت، ما اسرع ما تزول، دنيا لا يستطيع الانسان أن يتمدد فيها كما كان يتمدد هارون الرشيد، هارون الرشيد يلتفت الى السحابة يقول لها أينما تمطرين يأتيني خراجك، في سبيل

هذه الدنيا سجن موسى بن جعفر عليه السلام، هل جربنا أن هذه الدنيا تأتي بيدنا ثم لا نسجن موسى بن جعفر؟ جربنا أنفسنا؟ سألنا انفسنا؟ طرحنا هذا السؤال على انفسنا؟ كل واحد منا يطرح هذا السؤال على نفسه، بينه وبين الله. ان هذه الدنيا، دنيا هارون الرشيد كلفته أن يسجن موسى بن جعفر، هل وضعت هذه الدنيا أمامنا لكي نفكر بأننا أتقى من هارون الرشيد؟

ما هي دنيانا؟ هي مسخ من الدنيا، هي أوهام من الدنيا، ليس فيها حقيقة إلّا حقيقة رضى الله سبحانه وتعالى، إلّا حقيقة رضوان الله، كل طالب علم حاله حال علي بن أبي طالب، اذا كان يعمل للدنيا فهو أتعس انسان، لأن أبواب الدنيا مفتوحة، خاصة اذا كان طالب له قابلية، له امكانية، له ذكاء، له قابليات، هذا أبواب الدنيا مفتوحة له، فاذا كان يعمل للدنيا فهو أتعس انسان، لانه سوف يخسر الدنيا والآخرة، لا دنيا الطلبة دنيا ولا الآخرة يحصل عليها، فليكن همنا أن نعمل للآخرة، أن نعيش في قلوبنا حب الله سبحانه وتعالى بدلاً عن حب الدنيا لانه لا دنيا معتد بها عندنا، الائمة عليهم السلام علمونا بأن نتذكر الموت دائماً يكون من العلاجات المفيدة لحب الدنيا، أن يتذكر الانسان الموت، كل واحد منا يعتقد بأن كل من عليها فان، لكن القضية دائماً وابداً لا يجسدها بالنسبة الى نفسه، من العلاجات المفيدة ان يجسدها بالنسبة الى نفسه، دائماً يتصور بأنه يمكن أن يموت بين لحظة واخرى، كل واحد منا يوجد لديه أصدقاء ماتوا، اخوان انتقلوا من هذه الدار الى الدار الاخرى، أبي لم يعش في الحياة اكثر مما عشت حتى الآن، أخي لم يعش في الحياة اكثر مما عشت حتى الآن، أنا الآن استوفيت هذا العمر، من المعقول جداً أن أموت في السن الذي مات فيه

أبي، من المعقول جداً أن أموت في السن التي مات فيها أخي، كل واحد منا لابد وأن يكون له قدوة من هذا القبيل، لابد وان احباباً له قد رحلوا، أعزة له قد انتقلوا لم يبق من طموحاتهم شيء، لم يبق من آمالهم شيء، ان كانوا قد عملوا للآخرة فقد رحلوا الى مليك مقتدر، الى مقعد صدق عند مليك مقتدر،واذا كانوا قد عملوا للدنيا فقد انتهى كل شيء بالنسبة اليهم، هذه عبر، هذه العبر التي علمنا الائمة عليهم السلام ان نستحضرها دائماً، تكسر فينا شره الحياة، ما هي هذه الحياة؛ لعلها أيام فقط، لعلها أشهر فقط، لعلها سنوات، لماذا نعمل دائماً ونحرص دائماً على اساس انها حياة طويلة، لعلنا لا ندافع إلّا عن عشرة أيام، إلّا عن شهر، إلّا عن شهرين لا ندري عن ماذا ندافع، لا ندري اننا نحتمل هذا القدر من الخطايا، هذا القدر من الآثام، هذا القدر من التقصير أمام الله سبحانه وتعالى وأمام ديننا، نتحمله في سبيل الدفاع عن ماذا، عن عشرة أيام؛ عن شهر، عن أشهر... هذه بضاعة رخيصة، نسأل الله سبحانه وتعالى ان يطهر قلوبنا وينقي أرواحنا، ويجعل الله أكثر همنا، ويملأها حباً له، وخشية منه، وتصديقا به، وعملاً بكتابه...

الموضوع	الصفحة